روايات
الهلال

الغبيّ

فتحي غانم



الغبى

بقلم
فتحى غانم



دار الهلال

الفصل الأول

هذه الأوراق التى أقدمها لكم أثارت فضولى مرتين .. أولا لأنها تتحدث عن شخص غبى باهتمام بالغ ، وتحاول دراسته وكأن غباءه أمر جوهرى وخطير وجدير بالدراسة ، ولقد تعودنا أن نهتم بالشىء المهم وأن نصرف اهتمامنا عن الأمور التافهة .. لذلك قد يقول البعض إن التعمق فى دراسة الغباء هو فى حد ذاته عمل تافه وغبى ، وكنت أود أن أشارك أصحاب هذا الرأى حتى لا أتعرض لسخرية أحد .. ولكنى أعترف لكم منذ البداية أنى بعد أن فرغت من قراءة هذه الأوراق تغيرت نظرتى للغباء تماما ..

وأكاد أقول إنى أحببته – أعنى الغباء – من بعض نواحيه .. رغم أنى لا أستطيع أن أجزم بفائدة الغباء .. ونحن فى العادة لا نحب أو نعجب إلا بما يفيدنا فائدة مادية أو معنوية .. وهذا لا يعنى أن الغباء ليس مفيدا على الإطلاق فعندك مفكر عظيم مثل كارليل يقول إن «الإنسان بالغباء وحسن الهضم يستطيع أن يواجه الكثير من الحياة» ولكن ليس معنى هذا أنى أتمنى لو كنت غبيا ، فهذا ما لا أرضاه لنفسى حتى الآن .. وربما كان حبّى لما أسميه بعض نواحى الغباء – يرجع إلى أنى فهمت عنه الكثير .. وقد يتساءل البعض ممن هم أقل خبثا – هل من الممكن أن نخلط بين الغباء والفهم .. فنقول إننا فهمنا الغباء ،

إن الغباء بطبيعته ضد الفهم .. إنه معصوم من الفهم ، كما أن الفهم معصوم من الغباء . ومثل هذه المناقشة تثير الارتباك .. وأفضل أن يؤجلها كل من يحاول أن يثيرها حتى ينتهى من قراءة هذه الأوراق التى أقدمها له ..

قلت إن فضولى ثار مرتين ، الأولى لأن الأوراق تتحدث عن شخص غبى باهتمام بالغ ، أما الثانية فلأن سؤالا ملحا خطر لى ، حاولت جاهدا أن أجيب عليه أثناء قراءتى للأوراق ، وحتى بعد قراءتى لها ..

من هو كاتب هذه الأوراق ؟ من هو راوية هذه الحوادث ؟ هل هو رجل ؟ هل هى امرأة ؟ وأستطيع الآن أن أقول إنى وصلت إلى إجابة .. ولكنى لست واثقا تماما منها .. أحيانا أجزم أنى وصلت الى الاجابة الصحيحة وأنى عرفت شخصية الكاتب .. وأحيانا يساورنى الشك .. خاصة إذا ما حاولت أن أجزم ، هل هو رجل أم امرأة ؟!..

ولا أريد أن أضيع وقتكم فى سرد تفاصيل عثورى على هذه الأوراق ، أو نوع الخط الذى كتبت به ، فهذا النوع من التحقيق قد قمت به نيابة عنكم ثم وجدت أن من الغباء الاستمرار فيه فإذا كان لا يوافقنى أحد على هذا الرأى ويعتقد أنه قادر على معرفة صاحب الأوراق أو صاحبتها ، فله الحق أن يطلع عليها بعد أن أنتهى من نشرها .

ولقد سمحت لنفسى أن أتدخل وأكتب تعليقا أو ملاحظة أو أذكر شيئا من معلوماتى الخاصة ولكنى راعيت ألا أكثر من التدخل حتى لا يتهمنى أحد بالتطفل أو حب الظهور تلك العادة المنتشرة بيننا رغم أننا لا نرحب بها ونسخر منها وربما اتهمنا صاحبها بالغباء لأنه يزاحمنا فى

أفكارنا وتصوراتنا الخاصة مدعيا أنه يعرف أكثر وأن ملاحظته قد غابت عنا أو مدعيا الطرافة وخفة الدم وهو فى الحقيقة لا يفعل أكثر من أن يفرض نفسه علينا .

لم تبق إذن إلا الأوراق ..

تبدأ حياة محمود – وهذا هو اسم الغبى الذى تتناوله هذه الأوراق بالدراسة – منذ أربعين عاما وهو رجل قاهرى عاش معظم حياته فى القاهرة وسافر فى رحلات كثيرة الى أوربا وأمريكا فى الفترة ما بين الثلاثين والأربعين من عمره ، كما اتصل بالريف المصرى فى زيارات خاطفة تم أغلبها فى فترة مراهقته وسيشرح فيما بعد فى الوقت المناسب الأسباب التى جعلت الأجانب فى أوربا وأمريكا لا يكتشفون غباء محمود وهى تختلف تماما عن الأسباب التى جعلت الفلاحين فى الريف المصرى لا يعاملون «محمود» كإنسان غبى .. ففى الحقيقة يجب أن نعتقد منذ البداية أن «محمود» كان غبيا فى القاهرة وفى بقية المدن وعلى العموم حيث كان يختلط بالطبقة المتوسطة التى ينتمى اليها .. أما فيما عدا ذلك فلم يعامله أحد قط على أنه غبى ، وليس معنى هذا أن غباء محمود مشكوك فيه أو أنها تهمة ظالمة لصقت به نتيجة غباء من يعرفونه، أبدا ، فهو غبى أصيل ..لكن النظرة إلى الغباء أو إلى الشخص تختلف فى القاهرة عنها فى نيويورك أو قرية من قرى الفلاحين .

ويجب أن نسلم منذ البداية أن تأثير البيئة لن يشغلنا كثيرا فى دراسة شخصية محمود فكلما تقدمنا فى البحث سنجد أنفسنا نبتعد شيئا فشيئا عن البيئة والمجتمع وننفصل عن العالم الخارجى الذى

يحيط بالانسان .. حتى لا يبقى أمامنا إلا ذلك العالم المغلق الذى يعيش فيه محمود .. أعنى عالم الغباء ..

ومع ذلك فهناك ارتباط وثيق بين محمود وبيئته ومجتمعه فهو موجود بيننا على نحو ما ، ولقد تعودنا أن نهرب من مواجهة غبائه بالسخرية أو النفور ولكننا لم نحاول أبدا أن نعقد صلة مشاركة جدية معه . وقد يظن البعض خاصة الأذكياء أن مثل هذه المشاركة مع الغبى أمر مستحيل واذا لم يكن مستحيلا فهو أمر عقيم وهذا خطأ كبير من واجبنا أن نوضحه ..

ونكتفى الآن بأن نقول إن هذه الابتسامة الساخرة التى نواجه بها الغبى لا تعنى تفوقنا نحن الأذكياء على الغبى بقدر ما تعنى فى الوقت نفسه عجزنا ويأسنا من فهمه والاتصال به .

ان هذه البسمة الساخرة هى الحد الفاصل بيننا وبين المستحيل الذى لا نقوى على بلوغه رغم أننا نقابله ونراه ونكلمه ونتعامل معه ..

ومن الأوصاف التى لصقت بمحمود طوال حياته كلمات مثل « لوح ، بهيم ، بجم ، جماد » الى غير ذلك من الأوصاف التى تنتهى دائما بتقرير غبائه وعزله عن الإنسان والإنسانية وإلحاقه بمرتبة الحيوان الأعجم أو الجماد ، هذا النوع من التشبيهات التى يبتكرها العقلاء ويغدقون بها على الغبى تورطهم فى مشاكل لا حصر لها فإذا كان محمود حيوانا ، إذا كان حمارا أو بغلا أو قردا أو إذا كان جمادا ، لوحا من الخشب أو الصفيح أو حجرا أصم .. كان معنى هذا أن «محمود» يتميز عنا بصلة أخصب وأعمق مع الحيوانات والجماد .. صلة لا نعرفها نحن ولكننا نحس بها خلال التشبيهات التى نغدقها – نحن

الأذكياء العقلاء - عليه .. إننا لا نستطيع أن نخاطب البحر أو الجبل أو الزهرة أو البحيرة لا نستطيع أن نعقد صلة مباشرة مع الأشياء ، وكل الشعراء والفنانين الذين خاطبوا الحيوان أو الطير أو الطبيعة كانوا يخاطبون أنفسهم ويعبرون عن انفعالات أو مشاعر بمناسبة وجود هذه الأشياء فى مواجهتهم ولكن أحدا منهم لم يحقق حتى الآن اتصالا مباشرا بصخرة أو لوح من الخشب .. فهل الغبى يستطيع ذلك ؟..

منذ عام فقط كانت هذه الأفكار مجرد هواجس غير واضحة تشغل بالى دون أن تقلقنى أو تدفع بى الى تصرف ما ثم قررت كتابة هذه الأوراق لأحدد أفكارى وأوضحها .. ومنذ بدأت الكتابة وأنا أشعر أن هــذا التصرف - أعنى التفكير بالكتـــابة - هو أول قرار أتخذه فى حياتى . ولقد فكرت طويلا وراجعت ذاكرتى فأيقنت لدهشتى أن حياتى السابقة كانت تسير وفقا لقرارات الآخرين . لذلك أعتقد أن من واجب الأمانة والدقة أن أنبه من يقرأ هذه الأوراق إلى أنى أحاول أن أكتشف لنفسى طريقا أو مسلكا لحريتى فى نفس الوقت الذى أدرس فيه غباء محمود .. ومادمت فى مجال تنبيه القارىء الى أشياء قد تغيب عنه بسبب عجزى عن التعبير أود أن أقول له إنى لا أعرف الخيال الأدبى .. ولا أعرف شيئا عن فن كتابة الروايات وكل همى هو أن أسجل الحقائق والوقائع بدقة رغم ما فى ذلك من صعوبة شديدة .. وكما قلت أنا لا أكتب لأعبر بل أكتب لأفكر وكثيرا ما يتوقف القلم فى يدى وأعيش فى لحظات من الغباء التام فأرى السطور التى كتبتها وأرى الورقة أمامى وأرى القلم وأرى يدى وأرى السيجارة على المنفضة وتصبح كل هذه الصور مجرد صور صماء لا معنى لها .. لا تحرك فى نفسى إحساسا

أو انفعالا . وعندما أفطن الى موقفى الغريب أبتسم تلك الابتسامة الساخرة التى نواجه بها مواقف الغباء ، ولابد من أن نعترف أننا جميعا رغم ذكائنا الذى لا شك فيه نعانى - أحيانا - من لحظات غباء .

بعد هذه المقدمة الطويلة نسبيا يذكر الكاتب اسم محمود كاملا ويذكر وظيفته ولقد رأيت لأسباب خاصة بالنشر ان امتنع عن ذكر الاسم الحقيقى لمحمود أى أن محمود هو اسم مستعار ، وذلك لأجنب نفسى متاعب قضية قذف ومطالبتى بتعويض كما أنى امتنعت عن ذكر الوظيفة فالمنصب كبير يعادل منصب وكيل وزارة أو مدير عام أو مستشار .. ومن التقاليد المقررة أن لهذه المناصب احترامها ووقارها ومن غير المألوف أن يتهم صاحبنا علنا بأنه غبى حتى ولو اعترفنا بهذه الحقيقة بيننا وبين أنفسنا .. فليس كل ما يعرف يقال وهناك شىء اسمه الذوق واللياقة وان كان البعض يحلو له أن يصف الذوق فى هذه الحالات بالنفاق .

ويقول الكاتب إن جميع المتصلين بمحمود يعلمون عن يقين أنه غبى وان اختلفوا فى صفات أخرى له فمثلا هناك من يقول إنه غبى وطيب وهناك من يقول إنه غبى وقاسى القلب أو غبى ولكنه يعرف دقائق عمله ، أو غبى له رأيه أو غبى وصريح أو غبى ولكنه حمار شغل أو غبى ومخلص ، فالصفة الوحيدة التى يتفق فيها الجميع هى صفة الغباء أما باقى الصفات الأخرى فهى مثار خلاف عنيف .

وسيادة الوزير هو الذى يصر على وصف محمود بأنه غبى ولكنه حمار شغل ومخلص .. وعلى الرغم من أن غباء محمود يضايق سيادته الى حد أنه يفكر فى إبعاده عن منصبه أكثر من مرة فإنه -

أى سيادته – كان يعود دائما الى محمود بعد أن يقلب فى رأسه أسماء الأذكياء فلا يجد بينهم من يستطيع القيام بهذا العبء الهائل من الأعمال دون أن يتفلسف أو يعارض أو يناقش مناقشات نظرية جوفاء أو يسلم نفسه للخيال أو يسقط بذكائه فى انحراف غير أخلاقى فإذا كان غباء محمود يجعله مثل الحمار أو لوح الخشب فمما لا شك فيه أنك لا تتوقع أخطارا كبيرة منهما – الحمار أو لوح الخشب – وتستطيع أن تتصور مقدما تصرفاتهما أعنى تصرفات محمود .

أما مدير مكتب محمود فله رأى آخر وهو أنه غبى وطيب لكنه لا يصلح لأى عمل وقد استفاد مدير المكتب من غباء محمود حتى أنه أصبح القوة الحقيقية فى الوزارة ، والمرءوسون وأصحاب الطلبات من الجمهور يتناقلون هذا الرأى ببساطة والذين خانهم التوفيق ولجأوا إلى محمود وقد خدعهم منصبه سرعان ما علموا أنه ليس أكثر من منظر أو قناع لمصدر القوة الحقيقية وهو السيد مدير المكتب .

غير أن بعض من عرف «محمود» خلال اجتماعات اللجان يؤكد رأيا آخر وهو أنه رغم غباء محمود فإنه صاحب خبرة حقيقية فى بعض نواحى عمله وإنه صريح الى أقصى حد ..

وهنا يقرر صاحب الأوراق أن هذه المعلومات الأخيرة عن محمود أثارت حيرته فهل يتفق الغباء مع الخبرة أو العلم وهل يتفق الغباء مع الرأى .. ثم يقول الكاتب إنه بحث طويلا هذه النقطة ولم يجد لها تفسيرا الا عند الفيلسوف أرسطو وسيتناول الكاتب شرح هذه النقطة بالتفصيل فيما بعد .

ونعود إلى الأوراق فى اللحظة التى ينتقل فيها الكاتب من عمل محمود إلى بيته وهو بين زوجته وأولاده ، يقول الكاتب إن زوجة محمود من رأى مدير مكتبه وهو أنه غبى وطيب ولكن هذه المقارنة بين رأى الزوجة ورأى المدير ليست دقيقة تماما ، فهناك اختلاف جوهرى لأن الزوجة تنسى أحيانا غباء محمود أو هى عودت نفسها على تجاهله ، ولقد ارتبط غباء الزوج عندها أول الأمر بعلاقاته الجسدية والعاطفية معها ..

فالسيدة زكية وهو اسم مستعار بطبيعة الحال ، امرأة ريفية الأصل ، تؤمن بالتقاليد وأحكام الدين وتخضع تماما لسيطرة أبيها .. وهذا يعنى أنها منذ صباها المبكر وهى تكبت جماح عواطفها ، وتخاف الأفكار الشيطانية التى تجول برأسها . وكان زواجها بمحمود نسخة مكررة من آلاف أو ملايين الزيجات التى عرفتها مصر خلال القرون التى مضت ، ذلك النوع من الزيجات الذى يبدو أنه سيتلاشى من مجتمعنا فى سنوات قليلة قادمة .

وكان من المستحيل أن تدرك زكية أن «محمود» غبى الجسد أو بمعنى أكثر وضوحا أن جسده بليد غير قادر على التعبير عن رغباته ، وفى العادة تصبر البنت المؤدبة وتتهم نفسها بالقبح أو بشىء من هذا القبيل ولكن هذا النوع من الصبر لا يدوم ، فتذهب العروس إلى أمها وتشكو لها وعندئذ يظهر التفسير المناسب لموقف الزوج بأنه غشيم أو خام .. ويتداول الكبار للوصول إلى أسلوب لبق يزيل الغشاوة عن عين الزوج الخام ذى الأدب المفرط .

لكن زكية وحدها هى التى فطنت إلى أن المسألة أعقد من أن

يكون الزوج غشيما .. فكان عليها أن تبذل جهودا مضنية ولا يليق ذكرها في هذا البحث العلمي كي تدرب «محمود» على التعبير عن جسده ، وأثناء بذل هذه الجهود وبعدها أقنعت زكية نفسها انه غبي ومع ذلك لم تكن تستطيع أن تدرك أن الغباء يكون في الجسد كما يكون في الروح والعقل .. والجسد هنا يعني الغريزة .. ونجحت زكية فتحول محمود إلى رجل طبيعي من الناحية الجسدية ولكنه ظل بليدا خاملا في انفعالاته وعواطفه .. واستمرت زكية في جهودها فلقنت «محمود» الانفعال ولقنته العاطفة .. وسبق أن قلت إن زكية تتجاهل غباء محمود وتفسير ذلك أنها تتجاهل أنها علمته كيف يفعل أو يعبر عن عاطفته وإنها تتجاهل أنه لا ينفعل حقا ولا يشعر بعاطفة بل هو مجرد ببغاء يردد ما تعلمه ..

والآن وبعد أن أنجبت زكية طفلين من محمود – وهما طفلان ذكيان – تشعر بقلق غامض .. فقد يكتشف ولداها غباء والدهما يوما ما .. خاصة وأن ملامح وجهه كثيرا ما يظهر عليها الجمود في هذه الأيام، وكأنه كلما تقدمت به السن ينوء بالأقنعة التي يظهر بها من ضحك وابتسام إلى حزن وغضب إلى رقة وتودد فهو يكثر من ساعات راحته فيتخلى عن كل هذه الانفعالات ويستريح في غبائه المطبق .. يسمع النكتة ولا يبتسم ويقع أمامه ما يثير غضب الذكي ولا يثور لأنه لم يفطن أو لأنه تكاسل عن هذه الآلية التي يظهر بها انفعالاته .

وزكية لا تدرك بوضوح هذه الحقائق ولكنها تستشعر هذا القلق الغامض نحو محمود وتثور أحيانا في وجهه ثم تتبين أن ثورتها لا معنى لها .. فليس هناك أي رد فعل عند محمود ولا أسف ولا اعتذار ، غموض كامل بلا حيرة .. بلا أدنى قلق فتضطر عندئذ الى العودة الى ما بدأته من مواصلة تدريبه .. وكأنه قطعة صلصال تشكلها كما تشاء ..

فاذا كان مدير مكتب محمود هو الذى يصنع «محمود» الموظف ذا المنصب الكبير .. فزكية هى التى تصنع محمود الزوج والأب .. أما محمود نفسه فليس أكثر من قطعة صلصال أو لوح من الخشب .. فهو غبى .

وقبل أن نترك المدير والزوجة إلى نقطة أخرى نذكر فارقا آخر بينهما فى نظرتهما إلى محمود .. فالمدير يصنع «محمود» الموظف ليستفيد هو بالنفوذ والسلطان .. أما زكية فتصنع «محمود» الزوج والأب بالمصير وبإرادة الله .. مما يبين لنا موقفين متغايرين للدنيا والدين بالنسبة للغباء وهذا أيضا سيجيء شرحه بالتفصيل عند الكلام عن رحلات محمود إلى أوروبا وأمريكا وهو بين الثلاثين والأربعين من عمره أو عند الكلام عن زياراته الخاطفة للريف أيام مراهقته .

غير أننا ننتقل الآن فى أول محاولاتنا لمواجهة الغباء بعد أن حمنا حوله من خلال عمل محمود وبيته وليس معنى هذا أننا سنلتقى بالغباء فى الحال ولكننا من خلال سعينا قد نكتشف طريقا إليه .

وعلينا أن نبدأ بتخليص محمود من كل ما حوله .. نجرده من رعاية زكية ، نجرده من قلقها وإيمانها ونجرده من منصبه الكبير ومن الهالات التى تحيط بهذا المنصب .. أى نجرده عموما من وضعه الاجتماعى ونحاول أن نتعرف عليه كإنسان فرد من لحم وعظم ودم .

وسنلاحظ على الفور أننا نستطيع أن نواصل عملية هذا التجريد حتى نجرد «محمود» من ملابسه ولكننا لم نستطع أبدا تجريده من أنفسنا ، من عيوننا التى ترقبه وأفكارنا التى تفكر فيه وتناقش حالته وتحكم عليه.

وهذا يعنى أن وصف الغباء سيظل صادرا منا نحن الذين نواجه «محمود» .. فمهما قلنا عن غبائه فهذا الغباء ليس حقيقة موضوعية فى محمود وإنما هو حكم منا نحن الغرباء عنه نحكم به عليه وهذا يجعلنا في موقف أخلاقى حرج .. فلماذا نقول إن «محمود» غبى .. وما هو هذا الغباء الذى نختزنه فى عقولنا أو جيوبنا لنقذف به «محمود» ولا نراه إلا من خلاله ولنتصور «محمود» يعيش وحيدا لا يعرفه أحد .. هل كان يصبح غبيا أو هل كان يتهم نفسه بالغباء أو تهبط ملائكة من السماء ويوحون إليه بأنه غبى ، إننا نحن الأذكياء نحمل الغباء معنا ونبذره أو نلطخ به من نستطيع أن نلطخه دون أن يرد بالمثل ويلطخنا نحن بدورنا بالغباء .. فالملاحظ على الغبى أنه لا يتهمك بالغباء اذا اتهمته .. وحتى إذا تدرب على أن يرد بالمثل فهو يفعل ذلك على النحو الذى تعلم به محمود أن يتظاهر بالانفعال .. أى يتظاهر بالسرور أو الغضب وهو فى حقيقة الأمر لا يشعر بسرور أو غضب وهذا هو السبب فى أننا نتهم الغبى بالغباء .. فإذا صادف واتهمنا ضحكنا ولم نقنع برده لأننا نعلم أنه يمثل ولا يؤمن بما يقول .

لذلك نتخلى مؤقتا عن وصف محمود بالغباء ونتخلى عن الاعتقاد بأن انفعالاته ليست أكثر من مظاهر ونكتفى أول الأمر بالنظر الى محمود كجسد .. كشىء .. كتلة من اللحم والعظم والدم .. وهذا يتحقق لنا بطبيعة الحال عندما نرجع إلى اللحظة الأولى التى ولد فيها محمود وخرج من رحم أمه ليستقبل هذه الدنيا ..

وهكذا نبدأ من البداية ..

الفصل الثانى

يسمح الكاتب لنفسه أن يسجل بعض العلامات التى سبقت ولادة الغبى لما سيتبين من أهميتها فى الكشف عن غبائه منذ الأيام الأولى لولادته ، وهذا سوف يؤدى بنا إلى تحديد أدق لمعنى الغباء ..

فى صبيحة يوم من أيام أغسطس منذ حوالى أربعين عاما . كانت القاهرة تستيقظ على قيظ لافح ، ضوء الشمس أشد من المعتاد تذوب فيه المرئيات .. ولا تستطيع أن ترى البيت بيتا ولا الشجرة شجرة.. ولا الطريق طريقا .. كل شيء زائغ ينصهر . وضاعت الألوان ، فالأخضر مثل الأصفر مثل الأزرق .. كل الألوان تحولت إلى وهج .

ولقد اقتحم هذا الوهج نافذة حجرة نوم ابراهيم أفندى ، الكاتب بإدارة المستخدمين بوزارة الحقانية ، وهز ابراهيم أفندى رأسه ولعله كان يحلم ، وفتح عينيه ، وفى نفس اللحظة سمع صوتا غريبا ، التفت إلى نعيمة فوجدها غادرت الفراش . واستمر الصوت الغريب يصل الى أذنه . ثم انتبه إلى أن نعيمة تتقيأ خارج الحجرة .

بعد أن هدأت نعيمة قالت له وهى واجمة وبصوت خافت إنها تشك فى أنها حامل ، قابل ابراهيم أفندى الخبر بثبات ووقار وتركته نعيمة لتعد له طعام افطاره وهو يفكر فى القيظ الذى بدأ به النهار والمشوار

الذى سيقطعه إلى الديوان تحت وطأة الشمس الحارقة متشاغلا عن هذا النبأ الجديد .

ولكن النبأ كان أقوى من القيظ إذ حدث أن أطال ابراهيم أفندى النظر الى شاربه فى المرآة وهو يغسل وجهه وابتسم .. كما حدث أن فكر وهو يرتدى ملابس الخروج فى علاقته الجسدية بنعيمة وكانت تقف إلى جواره تناوله ما يريد ، تذكر أنه قرأ فى كتاب للجاحظ أو لكاتب عربى آخر أن العرب كانوا يطلقون صفة نجيب على الطفل الذى لا يتصل أبوه بأمه أثناء حملها .. لو أراد أن يكون ابنه نجيبا ذكيا فعليه أن يفعل ذلك.

هل يستطيع ؟ وهل هذا صحيح ؟ أم هو مجرد كلام قاله العرب ..

كانت نعيمة تتحرك بنشاط مفتعل فرغم سرعتها وحيويتها يبدو عليها الانكسار وفى نظرتها حنان وفى صوتها أسى ، وكان رأس ابراهيم أفندى يدور بأحاديث سمعها عن أزواج يتحدثون عن صلاتهم بزوجاتهم الحوامل وعندما فرغ من ارتداء ملابسه عدل عن اتخاذ قرار ولكنه تأمل نفسه بإعجاب وهو يتخيل مضى تسعة أشهر لا يتصل خلالها بزوجته وامتدت يده الى شاربه تتحسسه ثم ربت على كتف نعيمة وأوصاها بالراحة وخرج الى الديوان .

وفى الشارع أحس ابراهيم أفندى أن شيئا عظيما يحدث فقد اختلط عليه الأمر فالقيظ والوهج تحولا دون أن يدرى إلى شعور بأنه سيصبح أبا فكان يصر على أن يرفع رأسه ويحدق فى وجوه الناس وهو يرفع عصاه ويهبط بها ليدقها على أسفلت الرصيف فى اعتداد ، لابد أنه كان يشعر فى تلك اللحظة أنه يملك حقا أكبر فى هذه الأرض التى يمشى عليها .. وأن قوى عظيمة تؤيده وتشد أزره .

إنها لحظات الاحساس بوقوع معجزة ، ومما لا شك فيه أن الحمل والولادة معجزة .. وظهور حياة جديدة معجزة ، ولكننا ننسى هذه الحقيقة أو نتجاهلها أولا ، لأنها تحدث بكثرة وثانيا لأن ادراك المعجزة قد يذهلنا أو يشلنا ، إننا كى نكون عمليين وعقلاء ولدينا حسن تصرف نقنع أنفسنا بسرعة . ان كل شىء من حولنا عادى وطبيعى ومتوقع وليس فيه ما يثير الدهشة أو الغرابة فليس غريبا أن هناك سماء أو أن الشمس تشرق وتغرب وليس غريبا أن الماء يشق الأرض فى صورة نهر ماؤه عذب وليس عجيبا أننا نأكل ونشرب .

وليس هناك ما يدعو للدهشة فى أن طفلا يولد بأن تنتفخ بطن أمه ثم تخرج من هذه البطن قطعة من لحم تصرخ ، كل هذه الأمور عادية .. هذا ما يقوله العقلاء والعمليون .

ولقد حاول ابراهيم أفندى أن يكون عاقلا وعمليا فتمسك بالثبات والوقار بعد سماعه النبأ ولكنه يمر الآن بلحظة الإحساس بالمعجزة فيشعر أن كل شىء باهر وغريب وينتابه هذا الإحساس بأن شيئا عظيما يحدث .

وهذه نقط يريد أن يؤكدها الكاتب لأهميتها القصوى بالنسبة لقضية الغبى ، فلو أن ابراهيم أفندى استطاع أن يحتفظ بإحساس المعجزة ، لو كان فى مقدوره أن يفعل هذا ولو كان غيره من البشر يحتملون هذا الاحساس بالمعجزة على الدوام لكان من المحتمل أن يصبح مثل هذا البحث عن محمود الغبى لا مبرر له فلم تسمع حتى الآن أن أحدا اتهم معجزة بالغباء . إلا أننا يجب أن نتخلص أولا من الاحساس بالمعجزة ونتجاهلها وبمعنى آخر ننسى ونتجاهل أن مجرد حياة محمود الغبى معجزة حتى نستطيع بعد ذلك أن نتهمه بالغباء .

ونحن نعرف عن يقين وبالتجربة أننا فقدنا تماما الإحساس بالمعجزة فلا أحد يقف ذاهلا أمام معجزة أن قلبه يدق وأن رئتيه تتنفسان . وهذا موقف إنساني عريق فى الانسانية فكلما ابتعدنا عن المعجزات والتفكير فيها والإحساس بها ابتعدنا عن القوى الالهية التى هى غير انسانية وعشنا فى وهم إنسانيتنا وكأننا نملك زمام أمورنا وبذلك نتصرف ونحكم على الأشياء ونفتخر بأننا واقعيون ونعلن أننا أحرار .

لا لوم إذن على ابراهيم أفندى لمحاولته اخفاء مشاعره العظيمة عن زملائه في الديوان . كان الرجل يريد ببساطة أن يحتفظ بإنسانيته فجعل من معجزة الحمل سرا يغالبه ويقاومه حتى يجد طريقا للسيطرة عليه ولتحويله من احساس بمعجزة الى احساس بأنه أمر عادى حدث ملايين وملايين المرات فمثل هذه النظرة الحسابية كفيلة بأن تصحح الأوضاع وتسترد لابراهيم أفندى عقله وانسانيته .

ولقد تم هذا الانتصار الانسانى لابراهيم أفندى بعد أسابيع وهو يجلس فى مقهى الأزبكية مع أصدقائه ويعلنهم بالنبأ ، فقد عاد الى نعيمة تلك الليلة ومعه عبارات التهنئة والحديث عن المسئوليات ومستقبل الأولاد والتعليم والصحة والمرتب والمعاش .. حتى استقرت نفس ابراهيم أفندى .. فقد تحولت المعجزة الى روتين .. وبذلك أصبح هناك مبرر قوى - فيما بعد - للحكم على الوليد بأنه غبى .

أما نعيمة فكان لها موقف مغاير ، فهى لم تصمم ولم تصر على إنسانيتها كما فعل ابراهيم أفندى فاستسلمت للمعجزة ودفعت ثمنا لذلك عقلها ، وهى لم تجن ولكن تصرفاتها أصبحت شاذة فى

نظر العقلاء ، وأقنع ابراهيم أفندى نفسه بضرورة احتمال شذوذها ، احتمل رغباتها المفاجئة ونفورها المفاجيء ، احتمل هذيانها أو ما تصور أنه هذيان ، احتمل مخاوفها الغريبة .. أحلامها .. بكاءها بلا سبب ، خمولها المستمر، لم تعد هناك نعيمة ، كانت هناك فقط المعجزة .

غير أن نعيمة لا تستطيع أن تمضى فى هذا الطريق والا أصبحت شيئا غير انسانى لا يستطيع ابراهيم أفندى الحياة معها ، وقد استردت نعيمة انسانيتها فى اللحظة التى شعرت فيها بأول حركة للجنين فى بطنها . نعم لقد تمت المعجزة وظهرت الحياة الجديدة وأصبح لها علامات فهى تتحرك ، تنتفض تنغز .

واستعادت نعيمة قواها العقلية والانسانية لترقب هذه الحركات والانتفاضات والنغزات ، ولم يعد المهم هو المعجزة بل المهم هو مراقبة حركات المعجزة .. وشيئا فشيئا ويوما بعد يوم كانت نعيمة تتحسس بطنها وتبتسم والفرحة الانسانية تملأ قلبها .

فى ذلك الوقت بدأ ابراهيم أفندى يفكر جديا فى مستقبل ولده .. وبذلك - ودون أن يدرى - بدأ يضع مقدما الأدلة على غباء الوليد المنتظر.

ويجد الكاتب من واجبه فى هذه اللحظة أن يشرح بعض التفاصيل عن الصورة التى كان يرسمها الآباء عن مستقبل الأبناء منذ أربعين عاما .. وهو يستعين فى رسم هذه الصورة بفقرات ينقلها من خطاب يحتفظ به ابراهيم أفندى وكان قد أرسل لأستاذ فاضل يستشيره فى مستقبله .

ولدنا العزيز المفضال ابراهيم محمود المحترم .. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ..

أهديكم أزكى تحية وأعطر سلام .. أما بعد فقد وصلنا خطابكم الكريم وعرفنا ما فيه فامتلأ القلب سرورا ، واطمأن الفؤاد لما حققتموه من عظيم الآمال فكان نجاحكم بإذن الله نصرا مبينا . وهكذا الهمة من أصحابها والرفعة لطلابها .. أما طلبكم المشورة فى أمر استكمال تعليمكم . أو العمل بوزارة الحقانية فاعلم يا ولدى أن طلب النصيحة حق لكل مجتهد كريم مثلك وابن بار ، علينا نحوه واجب إسداء الرأى والنصح وعلى الله المتعال فصل الخطاب وتحقيق الآمال : واعلم يا ولدى أن دراسة القانون هى مطلب أولاد الأعيان . وقبلة أنجال الذوات . مستقبلها زاهر ، وثمار محصولها وافر لولا كثرة نفقاتها وعظم أعبائها . فاذا استطعت تدبير المال فلا تتأخر واذا لم تستطع فلا تندم .

ولم يستطع ابراهيم أفندى تدبير المال فقبل وظيفة كاتب بالحقانية بعد أن كان يأمل فى منصب مستشار بالحقانية ولم يستطع ابراهيم أفندى أن يمنع الندم على قلة المال وضياع الآمال رغم أن وظيفته كان لها احترامها وهيبتها فى المجتمع .

ومع تفكير ابراهيم أفندى فى مستقبل ابنه عاودته أحلام التعليم والوظيفة ، التعليم فى الحقوق ووظيفة القضاء . ولقد كان الآباء عموما فى تلك الفترة من حياة مجتمعنا يرسمون مستقبل الأبناء على هاتين الدعامتين ، التعليم العالى والوظيفة بالشهادة العالية ، وقد استقر فى الأذهان بعد وزارة سعد زغلول أن الأفندية أصحاب الشهادات قادرون على الوصول الى مناصب الوزارة بلا حاجة الى أن يكونوا أبناء باشوات .

وحدث أن وجد ابراهيم أفندى نفسه يحمل ملفات وأوراقا كثيرة يسير بها خلف مدير المستخدمين ليدخل مكتب سعادة وكيل الوزارة ، يداه ترتجفان وعيناه ثابتتان على الوكيل . ولدى سيجلس على مثل هذا المقعد . ربما نفس هذا المقعد . وينظر الى سعادة الوكيل فى اطمئنان وشفقة ، وفى أول مناسبة للكلام وبغير مناسبة لأن يقول ما قال ذكر ابراهيم أفندى لسعادة الوكيل انه ينتظر ولدا ، وأنه يعتبر نفسه وولده خادمين لسعادة الوكيل .

وفوجىء ابراهيم أفندى وهو عائد بالملفات باعتراض ساخر من مدير المستخدمين يذكره بأن من المحتمل أن تجيئه بنت .

وتضايق ابراهيم أفندى .. ان أحلامه تنهار كأن مقابلته لسعادة الوكيل ستذهب سدى ، كأنها ليست فألا ينبىء عن مصير ولده . ومن الواضح أن ابراهيم أفندى كان قد ابتعد نهائيا فى ذلك الوقت عن ذلك الشعور الذى أحسه يوم علم بالحمل لأول مرة .. الشعور بأن شيئا عظيما يحدث وأن فى الأمر معجزة ، فلو كان تذكر هذا الشعور لما اهتم كثيرا بالمفاضلة بين ولد وبنت فالمعجزة واحدة ولكنه الآن قد تورط مع نفسه ، مع انسانيته مبتعدا عن حقيقة الحمل ، عن حقيقة الجنين كما هو ، قطعة لحم ، إنه الآن مع أحلامه وآماله ، مع ذكريات فشله ، مع ندمه ، مع كل الاحتمالات التى يأمل فى بعثها من جديد غير مكترث بأنه يسبق الأوان فهو ينظر الى انتفاخ بطن نعيمة فيرى داخلها مكتب سعادة الوكيل ويرى نفسه أو يرى ابنه فى صورة سعادة الوكيل ؟ كيف يقبل اذن تلك الكلمات السمجة التى قالها مدير المستخدمين عن احتمال أن يكون الجنين بنتا . وكأى شىء سخيف سرعان ما نسيه ابراهيم

أفندى ومضى مع تلك الأحلام العريضة التى يغذيها فى نفسه . وكانت نعيمة تنصت الى هذه الأحلام فتفرح بها ولكن فرحها الحقيقى ظل مرتبطا بحركات الجنين فى بطنها ، فتعلن فى زهو ، الولد رفسنى .. الولد نائم ، الولد فى حالة شقاوة ، ثم تتذكر أنها لا تستطيع أن تجزم بأنه ولد أو بنت فتقلق ، وسرعان ما تطرد ذلك الخاطر السمج السخيف بأنها ستلد بنتا وكثر ابتهالها الى الله غير أنها لم تقف عند هذا الحد فبذلت جهودا انسانية جبارة كى تنجب ولدا ، عيناها لا تستقران إلا على الأولاد .. تصميمها يزداد حدة وكأنها ستضع بإرادتها الولد ، وسألت نعيمة زوجها عن الاسم الذى يختاره لابنه وأجاب ابراهيم أفندى على الفور : محمود .. على اسم سعادة الوكيل .

وكان فى القرية التى نشأ فيها ابراهيم أفندى ضريح لولى من أولياء الله الصالحين له كرامات وله جاه وحظوة عند الله وسافر ابراهيم أفندى الى القرية ليؤدى واجب عزاء وزار الضريح ، وهمس فى سره متوسلا إلى ولى الله أن يتشفع له ويحقق أمله ويرزقه ولدا .. ونذر أن يذبح عجلا لو جاءه محمود .

وحدث أثناء هذه الزيارة أن رأى ابراهيم أفندى طفلا على باب المسجد تنتابه حالة صرع .. كان جسد الطفل متصلبا والزبد يرتفع من فمه وعيناه زائغتان جامدتان كعينى ميت وارتاع ابراهيم أفندى . كانت أم الطفل تجلس بجواره هادئة مؤمنة وشيخ يمسح بيده على الجسد المتصلب ويقرأ والناس من حولهم صامتون ، تماثيل من الوقار والصبر ، وعلق هذا المنظر برأس ابراهيم أفندى طويلا وتساءل عن مصير الطفل فى الحياة وكان فى الحقيقة يتساءل عن مصير ابنه ، وعجب لموقف أم

الطفل ، وموقف أهل القرية ، لم يتكلم أحد لأن ما يصيب الطفل هو شيء غير مفهوم بالنسبة للعقل وتفسيره الوحيد عندهم أن بالطفل شيئا من الله فإذا شاء سبحانه أن يتصل بالطفل ويلقنه بعض أسراره فليس لأحد أن يتدخل ويقتحم هذه اللحظات المقدسة من الصرع . وتوقع ابراهيم أفندى وكان على حق فى توقعه أن الطفل عندما يكبر سيصبح ذا شأن كبير فى القرية ، بل هو منذ الآن له قداسته وهيبته فى القرية ، فأمه تبدو وكأنها فخورة به وهى تجمع الناس من حولها ليشهدوا تلك اللحظات المقدسة المباركة التى يمر بها الطفل ، سيتبارك الناس به وستلجأ اليه المرأة العاقر تريد أن تلمسه لتلد وسيكون لعابه الذى يسيل من فمه ماء طهورا يشفى من الأمراض ، ومن يدرى فربما كان ولى الله الذى زاره ابراهيم أفندى مثل هذا الطفل غائبا معظم أوقاته عن الوعى الذى يتعامل به الناس .. غارقا فى ملكوته الالهى .

ولكن ابراهيم أفندى كان يفضل مستقبل سعادة الوكيل على مستقبل ولى الله ، لا لأنه يجزم بأن سعادة الوكيل أفضل من ولى الله بل لأنه لا يحتمل فكرة أن يكون أبا لأحد أولياء الله مما قد يحدث له ارتباكا عظيما فى حياته خاصة فى مدينة كالقاهرة تجمع عددا كبيرا من الأذكياء والعقلاء ويفضلون مثله مستقبل سعادة الوكيل على مستقبل ولى الله .

ومن حق الكاتب أن يقف هنا ليتأمل الموقف الذى انتهت اليه الأمور ، فمن ناحية هناك نطفة تحولت الى جنين فى رحم نعيمة ، قطعة لحم تدب فيها الحياة التى مازال سرها مجهولا بالنسبة لنا نحن الأحياء، وهذا الجنين لا عقل له ولا قوة بالمعنى الدنيوى ولا أحد يستطيع

أن يقرر ما اذا كان هذا الجنين ولدا أو بنتا وربما كان توأما وهو ما لم يخطر على بال أحد .. وربما سقط الجنين أو وصل الى الدنيا ومات فمادمنا نتكلم عن الحياة فمن الحكمة أن ندخل فى حسابنا الموت وهو أيضا ما لم يخطر على بال أحد اللهم سوى هواجس ومخاوف غامضة كانت تنتاب نعيمة وابراهيم أفندى وتتركز حول الاهتمام بصحة نعيمة وطعامها وسمنتها أو تتركز حول تفكير ابراهيم أفندى فى عمره والسنوات المحتمل أن يقضيها مع ولده .. وجاء ذكر الموت بطريقة غير مباشرة فى مناقشة سريعة بين نعيمة وزوجها وهما يتحدثان عن متاعب الحمل فسألها ابراهيم أفندى اذا ما كانت تريد انجاب طفل آخر ، قالت نعيمة إنها تريد ، ووافقها ابراهيم أفندى راضيا وكان مبعث قول نعيمة إنها تريد رغم متاعب الحمل وكان مبعث رضاء ابراهيم أفندى هو ذلك الخوف الذى لم يعترفا به أو رفضا أن يدركاه بوضوح من احتمال موت الطفل المرتقب .

ومع كل هذه الشكوك التى تحوم حول الجنين نجد من ناحية أخرى أن عوامل كثيرة قد تحركت فيما يشبه الانفجار كلها تنتظر مقدم هذا الجديد المشكوك فى أمر مجيئه ، عوامل تحدد مستقبله وترسم له طريق دراسة القانون ومنصب وكيل الحقانية وعوامل تحدد له أسلوب الأذكياء العقلاء فى مدينة كالقاهرة وتبعده عن حياة أولياء الله الصالحين وتفكر فى أن الصرع مرض يعالجه الطبيب وليس حالة كشف وصلة مباشرة من السماء ، وعوامل تستعد لموته بإعداد احتياطى معد ومرسوم ومجهز .. أمومة وأبوة تنتظر وتتهيأ ، وهكذا تحددت العلامات التى سبقت ظهور الغبى .

الفصل الثالث

فلما جاءت الأيام الأخيرة من شهر مارس، تحمل معها الأتربة وزوابع الخماسين.. قرر الجنين أن يخرج من بطن نعيمة.. فقذف بنقطة دم، وأعلن حالة المغص والاوجاع.. وجاء الطلق.. فصرخت نعيمة فى أمها التى جاءت لتشرف على عملية الولادة، وأرسلوا فى طلب أم زكى القابلة.. وأم فهمى الجارة الصديقة النشيطة ..

وفى ظروف أخرى كان يصبح محتما على الكاتب أن يقدم وصفا تفصيليا لعملية الولادة.. وأن يتابعها باهتمام وقلق.. فهكذا يتصرف الكاتب صاحب الضمير الذى يريد أن ينقل الوقائع بدقة وأمانة.. أو على الأقل يصنع ماصنعه ابراهيم أفندى الذى لم يطق البقاء فى البيت وفر منه إلى المقهى.. وهو يقنع نفسه أن وجوده لا فائدة منه وأن النسوة كفيلات بإتمام المهمة على خير وجه.. كما أنه لن يحتمل سماع الصرخات والتشنجات بينما يذرع حجرات البيت فى عصبية لا تتفق مع مظهر الثبات والشجاعة الواجب توافرهما عند الرجال فى مثل هذه الظروف ..

لكن الكاتب يجد نفسه مرتبطا بمهمة أخرى.. إنه مرتبط منذ البداية بالغبى الذى سوف يولد بعد لحظات.. وبما أن الغبى مازال داخل بطن

أمه.. فالمكان المثالى بالنسبة للكاتب أن يكون داخل البطن مع الجنين أو يكون هو الجنين نفسه.. بشرط أن يكون واعيا بما يحدث.. وبذلك يستطيع أن يعرف بدقة كاملة مولد نفسه.. أى مولد الغبى..

«ملحوظة من الناشر: سبق أن ذكرنا من قبل أننا عرفنا من هو الكاتب.. وإن كنا لا نستطيع أن نجزم بهذه المعرفة.. خاصة فيما يتعلق بنوع الكاتب وهل هو ذكر أم أنثى.. والناشر يرجو حضرات القراء قراءة الفقرة السابقة بإمعان والتفكير فى احتمال أن يكون الكاتب كان فى بطن نعيمة مثلا.. وأنه هو الغبى» .

انتهت الملحوظة ..

ولو كان هذا هو الذى حدث فعلا.. لو افترضنا إمكان تحقيقه فستواجهنا عقبة الوعى.. لأن الجنين غبى ويستحيل عليه أن يعى لحظة ولادته فضلا عن أن الأجنة الاذكياء إذا كانوا يعون لحظات مولدهم.. إلا أنهم ينسونها تماما بعد ذلك.. ولا يتذكرونها إلا فى أحلامهم كما يقول العلامة فرويد.. وهو تذكر مشوش لا يفيد فى شىء..

إذن من المستحيل أن تعرف حالة الغبى ساعة ولادته.. هكذا يقرر العقلاء والأذكياء.. وإننا لا نستطيع معرفة ما إذا كان غبيا أو ذكيا.. ولكن الكاتب يعترض على كلمة «مستحيل» ويقول للعقلاء الأذكياء إذا كان هذا مستحيلا بالنسبة لكم.. فما أدراكم أنه مستحيل بالنسبة للغبى.. أتعرفون ما هو الغبى ؟ أتفهمونه ؟ إن من واجبكم أن تنتظروا فلعل المستحيل لا يكون مستحيلا .

إن ما علينا أن نفعله الآن، هو تحديد الاختصاصات فى هذه اللحظة، لحظة الولادة، ونحن نعرف اختصاص النسوة أم نعيمة قد اختصت

بالدعوات والابتهالات والجزع والصوت المتكسر.. وأم فهمي قد اختصت بغلى الماء واعداد المناشف وتنفيذ أوامر أم زكى التى اختصت بفحص نعيمة وتنظيم شهقاتها مع الطلق وزجرها أحيانا وملاطفتها أحيانا، كل هذه الاختصاصات كما نعلم ليست بذات أهمية قصوى ، فنحن نعرف أن نعيمة تستطيع أن تلد بنفسها وكم من مناسبة تعرضت فيها امرأة إلى أن تلد بغير مساعدة إلا عناية الله .

ومعنى هذا أن كل عمليات النسوة ليست ذات أثر حاسم أو خطير على مولد الغبى .

ومن ناحية أخرى نجد أن اختصاص ابراهيم أفندى كان الهرب الى المقهى.. وهذا الهرب جدير ببعض الشرح المختصر.. لقد كان الرجل مرتبكا حقا .. وأفعاله تنم عن ذلك.. فقد مشى فى الشوارع حتى وجد نفسه فى الطريق الى المحطة بينما هو يريد الذهاب إلى الازبكية، وعندما انتبه من ذهوله استدار فجأة وارتطم بأحد المارة.. فقال له آسفا «لامؤاخذة يابنى» وهو لا يدرى أن الذى ارتطم به، رجل مهيب وقور، جدير بلقب «بك» على الأقل ، وقد نظر «البك» الى ابراهيم أفندى شزرا .. ثم استقر رأيه على أن ابراهيم أفندى مجنون أو به لوثة فتركه يمضى لشأنه.. وفى المقهى كان ابراهيم افندى يضحك بلا سبب.. ويتجهم بلا سبب ثم يتذكر أنه يضحك أو يتجهم لأنه ينتظر.. وكان يفكر فى القيام والعودة إلى البيت ولا يقوم ولا يعود، وأذعن لتصميم أصحابه على دعوته الى الشراب، ثم دعاهم هو الى الشراب .. وتحدثوا عن الولادة ولاطفوه وأسكروه وسخروا منه واحترموه وأكرموه وهو لايعنيه سوى تأنيب نفسه لأنه سيستقبل ابنه سكرانا فيدفعه هذا التأنيب إلى طلب المزيد من الشراب ..

ولا نحتاج الى شيء كبير من الفطنة لنعلم أن ابراهيم افندى لم يكن هاربا من البيت والصراخ وحدهما وإنما هو هارب أيضا من كل ما شعر به أو فكر فيه أو تخيله خلال الشهور الماضية نحو ابنه .

لقد أسرف فى الوعود وبالغ فى الآمال بغير حساب حتى أنه كان يفكر فى نظافة الممرات المؤدية الى حجرة سعادة الوكيل بالوزارة.. ويقترح تنظيم العمل ويتأمل المكاتب الفخمة والسجاجيد الفاخرة أثناء تنظيف السعاة لحجرة سعادة الوكيل.. ولأنه يعد من الآن كل شيء لوصول سعادة الوكيل الجديد .. ابنه .. أحيانا كان يجرفه التيار فيتخيل ولده أعظم عظيم فى الدنيا وأغناهم جميعا وأتقاهم وأكرمهم.. يشيد له قصرا ومسجدا ودائرة زراعية ويبسط له نفوذا وسلطانا عظيمين ..

وحرام علينا أن نطلب من ابراهيم أفندى أن يحمل كل هذه الوعود وينتظر بها خارج حجرة نعيمة حتى إذا ما صرخ الوليد دخل عليه وقال له .. خذ أيها العظيم كل ما أعددته لك.. فالموقف محير، وسعادة الوكيل الجديد مازال جنينا لا حول له ولا قوة ، إنه موقف مضحك ولكنه أليم ، ولا يجب أن نسخر منه ونكتفى بأن نقول.. إذا أراد ابراهيم افندى أن يكون اختصاصه هو القرار - المؤقت طبعا - فهذا من حقه ومن واجبنا أن نبرره ونلتمس له الاعذار ..

بقى اختصاص الكاتب.. وهو يقتضى منه أن يعود إلى الجنين الذى على وشك أن يولد .. متجردا من أحلام ابراهيم أفندى .. متجردا من التصرفات العملية التى تقوم بها أم زكى وأم فهمى.. متجردا - إذا استطاع - من دعوات وابتهالات أم نعيمة .

بقى الغبى.. وهنا تواجه الكاتب مشكلة اللغة لأنها من صنع الاذكياء والعقلاء فالتعبير عن الغبى قد يكتشف لنا لغة جديدة وعلى الأقل من واجبنا أن نراجع بدقة كل كلمة يقولها لنضمن أنها تعبر إلى أقرب حد ممكن عما يريد التعبير عنه .

وقارىء هذه السطور فاته عدم الدقة فى التعبير عندما ذكر الكاتب هذه الجملة «وقرر الجنين أن يخرج من بطن نعيمة»، والكاتب يعتذر عن هذا الخطأ، وإن لم يصححه لأنه ليس واثقا تماما من الكلمة الصحيحة التى يضعها محل كلمة «قرر» ومع ذلك فإن ترك هذه الكلمة بغير تصحيح يؤدى الى مشاكل ضخمة فالجنين الذى «يقرر» لابد أن يكون له عقل وإرداة ، ولا بد أنه قادر على إصدار القرار - بعد أن وازن بين أمرين - وازن بين بقائه فى بطن أمه أو الخروج منها .. ثم اختار الخروج .. ولو كانت عند الجنين هذه القدرة على الموازنة والحكم لكان معنى هذا أنه شعر بالضيق داخل بطن أمه، أو شعر بالملل، أو شعر بالرغبة فى الحرية .. وهنا يصبح هذا الجنين فى نظرنا متهورا .. لأنه يحكم على ماهو فيه من جانب واحد دون أن تتاح له الفرصة للحكم على الجانب الآخر.. فهو يحكم باندفاع الصغير ويخرج من بطن أمه ليواجه ما لا يعرفه .. ولكى يكون قراره حكيما، فان من واجبه أن يحتاط ويدرس الناحيتين ، عالم البطن وعالم الدنيا .. ولكنه فى تهوره يقرر الخروج وهو لا يعرف ما إذا كان سيخرج لعائلة فقيرة أو غنية ، عائلة من الإقطاعيين أو الفلاحين أو العمال أو المثقفين ، عائلة مستغلة أو غير مستغلة ، عائلة انتهازية أو رجعية أو عائلة تقدمية وثورية ، إنه لا يعلم ما إذا كانت ستوضع فى فمه ملعقة من ذهب كما يقولون ، أو ملعقة من صفيح ، وهو

لا يدرى هل سيعيش يحارب الرنة أو يصادقها فى القطب الشمالى أو يركب (الركشا) بدلا من الدابة فى آسيا، أو يسبح فى بحيرات سويسرا .. أو يصطاد فى غابات الامازون أو يلعب الكرة فى شوارع القاهرة .. إنه يجهل تماما نظام مجتمعه.. أهو رأسمالى .. أم شيوعى أم اشتراكى أم قبلى أم بدائى.. وليست لديه أدنى فكرة عن الديانة التى سيعتنقها .. هل هى حكمة بوذا .. أم أناجيل المسيحية.. أم توراة اليهودية .. أم قرآن الاسلام.. أم سيطالب بأن يكفر بكل دين.. وحتى في أبسط الأمور، لو ولد فى اليابان فسيكون معرضا لحب أكل السمك النيىء .. هل سأل نفسه اذا ما كان يحب السمك النيىء ويفضله على غذائه الذى يصله وهو نائم فى بطن أمه .. أيحب حساء الضفادع الفرنسى .. ولو ولد فى غابات استوائية أيكون معرضا لعادة أكل لحوم البشر.. وفى مناطق أخرى عليه أن يختار بين البطاطس المقلى والارز والعصيدة والتمر أو الفول المدمس.. أما بالنسبة للأمور العظيمة فعلينا أن نعترف أن الجنين وهو يقرر الخروج من بطن أمه، فقد قرر فى نفس الوقت أن البقاء داخل البطن أسوأ فى كل الأحوال من احتمالات أحكام الاعدام، والمعتقلات والحروب والتشويهات الذرية ، وحوادث سقوط الطائرات وكوارث الفياضانات، والاوبئة والمجاعات، مثل الكوليرا والطاعون وغيرهما ..

قد يكون البقاء فى بطن الأم أسوأ دائما.. وقد يكون التهور وعدم التقدير، واتخاذ القرار قبل الموازنة الواجبة لجميع الجوانب والاحتمالات قد يكون هذا أو ذاك هو السبب فى قرار الجنين أن يخرج ..

وقد نقول – وهذا مايؤكده البعض – إن مجرد خروج الجنين الى الدنيا علامة على غبائه وهذا ما يجب أن نعارضه بشدة وإلا كنا جميعا

أغبياء .. ولأن الغبى الذى نهتم به .. كما سبق أن قلنا ، هو غبى أصيل، ولا يصح الشك فى غبائه ، حتى ولو اتهمنا جميع الاحياء بالغباء ..

والافضل من الاستطراد مع هذا المنطق الذى نتورط فيه اذا استخدمنا كلمة (قرار) وقلنا إن الجنين (قرر) الافضل أن نعترف بأن جملة (قرر الجنين) خاطئة .. حتى ونحن لا نعلم عن يقين إذا ماكان قد قرر أو لم يقرر .

وفى حدود فهمنا الذكى .. نقول إنه إذا كان هناك قرار انسانى قد اتخذ وترتبت عليه تلك الاحداث التى انتهت بمولد الجنين.. فهو ذلك القرار الذى يعود بنا الى تلك الليلة من شهر يوليو قبل الولادة بتسعة أشهر .. وكانت ليلة صيف حار أسرف فيها ابراهيم أفندى فى شرب الماء بعد أن أكل السمك البلطى والجمبرى المشوى والأرز ولم يستطع ابراهيم أفندى النوم رغم الاكلة الدسمة، بسبب شدة الحرارة ، وكانت نعيمة ترقد الى جواره فى غلالة شفافة تكشف جسدها بثنياته الرطبة وبشرته الناعمة التى تفوح بالعطر، وكان ابراهيم افندى مشغولا بترتيب خواطره وهى لم تكن خواطر مهمة . مثلا كان عليه أن يقرر هل فى جيبه فكة أم لا.. ويزعجه انه نسى ، وكان عليه أن ينهض ويذهب إلىٰ الحمام ويتبول.. وكان عليه أن يهرش أصبع قدمه اليسرى بأظافر يده بعد أن فشل فى احداث الحكة المطلوبة ، وبالدرجة المطلوبة باستعمال أصابع قدمه اليمنى .. وكان عليه أيضا أن يبدأ أو يشرع فى طلب جسد نعمية، الآن أو بعد تحقيق كل طلباته السابقة .. أو العدول هذه الليلة خشية الإجهاد ومعدته مليئة بالطعام الدسم .

غير أن الأمر انتهى بغير تفكر الى اتمام اللقاء بين الجسدين ..

وكان لقاء سريعا وفاشلا من وجهة نظر نعمية .. وهذا اللقاء هو الذى أتى بالجنين . فلو سلمنابأن هذا اللقاء هو القرار الحقيقى نجد أنفسنا مرة أخرى غير واثقين من شىء .. فأى قرار - كما عرفنا بالنسبة لقرار الجنين - يحتاج الى الموازنة بين أحد احتمالين أو أكثر .. إما اتخاذ القرار وإما العدول عنه . والذى نعلمه - ولا شك فيه - إن الرجال غير قادرين ، حتى الآن على اتخاذ قرار بالعدول عن الاتصال بالنساء ، والقلائل الذين يتخذون مثل هذا القرار مضطرون الى عزل أنفسهم فى دير ، كما أن الآخرين الذين يتظاهرون باتخاذهم هذا القرار نعرف أنهم عاجزون يسترون عجزهم .. كذلك الأمر بالنسبة للنساء وهو موضوع لا يحسن الاطالة فيه لانه غير لائق ثم لانه معروف لدينا جميعا .

ونحن واثقون تماما أن اللقاء يتم وسبق أن تم وسوف يتم بين ملايين وملايين الرجال وملايين وملايين النساء ، وانه حتمى سواء فكرنا فيه أو لم نفكر سواء تفلسفنا أو لم نتفلسف ، وأقصى ما استطعنا الوصول اليه هو تنظيم لقاء الجسدين بين الرجل والمرأة . واحدى صور هذا التنظيم هو الزواج ولامعنى اذن لأن نقول إن القرار الأول الذى ترتب عليه ولادة الغبى هو تلك الليلة من ليالى الصيف التى تم فيها اللقاء أو هو ذلك اليوم الذى تم فيه زواج ابراهيم أفندى ونعيمة أو هو اليوم الذى ولد فيه ابراهيم ، وولدت فيه نعيمة وهكذا .

اذن فلا قرار ولا أحد مسئول وليس الأمر يتعلق بالذكاء أو الغباء بل إنه يتعلق بالله سبحانه وتعالى إذا كنت متدينا أو يتعلق بالطبيعة - وهى كلمة غامضة - إذا كنت طبيعيا . فضلا عن أن بعض الاذكياء هداهم ذكاؤهم الى تجاهل التفكير فى مثل هذه الأمور وانصرفوا الى ماهو أهم

– فى نظرهم – كجمع المال والبحث عن المتعة واللذة وغير ذلك من المطالب المشهورة المعروفة .

ودون أن يفرض الكاتب عليك رأيه فى عقيدته – وهو شديد التدين – يقول إن عليك أن تختار منذ الآن إذا ما كان الغبى ولد بقرار إلهى أو باسم الله أو بتأييد من الله وانه بذلك من صنع الله وانك مطالب بأن تواجه الغبى على هذا النحو أو أن تختار – بكل ماتملك من ذكاء وحرية– أن الغبى مجرد قطعة من لحم ودم صنعتها الطبيعة على نحو مازال مجهولا للعلم ولكن العلماء سيصلون الى معرفته فى وقت قريب أو بعيد .

على أن الكاتب لا يريد أن يفرض عليك الدين لأنه من المحال أن يفرض عليك بشكل جاد وحقيقى فلا يكفى أن ينطق لسانك خوفا أو مجاملة بأنك تؤمن بقداسة الغبى فهذا لن يعنى شيئا على الاطلاق ولن يؤدى الى مزيد من الفهم للغباء أو لأى معجزة أخرى لأن كل خلق هو معجزة إلهية فى نظر الدين لذلك سيقتصر الكلام، على الأقل فى هذه المرحلة، عن الغبى على أنه مجرد قطعة من لحم ودم سواء كانت من صنع الله أو من صنع الطبيعة وقد خرجت هذه القطعة من رحم نعيمة بسهولة نسبية فاندفع الهواء الى ماأسمه الرئتان فخرج صوت أسمته النسوة – وهن يهللن – بكاء وكانت قطعة اللحم مدلاة من قدميها والعيون تنظر الى مابين الفخذين وارتفعت الصيحات .. ولد.. ولد وغمرت نعيمة سعادة ظهرت فى عينيها وفى حركة رقبتها وفى صوتها القوى الضعيف وفى يديها وفى الألم الذى اختلط براحة كبيرة حتى أصبح لا فرق بين الراحة والألم ..

على أن قطعة اللحم قطعت البكاء أو على الاصح انقطع منها البكاء

وبدا أنها هامدة.. ومامن شيء يقطع بأنها حية الا يقين النسوة الأحياء الملتفات حولها بأنها حية ثم انها كانت دافئة وحمراء ولينة .. هكذا بدت لهم . ولقد غسلوها ودثروها بعد أن قطعوا الخلاص لأنهم يعلمون أنه يقطع واحتفظوا به فى صفيحة ليلقوا به فى النيل .

والكاتب لا يريد أن يعقد الأمور فيثير مشاكل بسؤاله عن حكمة إلقاء الخلاص فى النيل وماالفرق بين إلقائه فى النيل أو إلقائه فى مرحاض مع جذب الماء فوقه أو دفنه فى التراب أو الرمال ولكنه يصر على أن يقول إن الوليد الغبى كان جامدا لا فرق بينه وبين الخلاص المفصول عنه سوى فى الشكل وسوى نبض ضعيف جدا أو لعلها أرجاع عصبية أو اهتزازات أشبه باهتزاز زجاج نافذة عند مرور قطار بجوار البيت .

وكانت هذه الاهتزازات على وشك أن تقف أو لا تلحظها العين وعندئذ كان ابراهيم أفندى سيصل البيت مخمورا ليقولوا له إن ابنه ولد ومات وهو ماكان سيثير أحزانه وسيزيد من تأنيب ضميره وربما اغرقه فى الشراب طوال عمره فالمفروض أن يمضى وقت مناسب بين كلمة ولد وكلمة مات .

وبدا الوجوم على النسوة وانزعجت أم نعيمة حتى أنها فقدت القدرة على الابتهال أما نعيمة فلم تدرك شيئا .. وضعت قطعة اللحم الى جوارها تحنو عليها وتلفحها بأنفاسها وتنظر فيما يشبه العينين المغمضتين فى ثقه وفرح ورضاء .

ونسمح للكاتب بأن يقطع هذا المشهد - وقبل أن يصل ابراهيم افندى - ليذكر لك الحادث الغريب الذى وقع فى احدى مستشفيات نيويورك المخصصة للقطاء حديثى الولادة فقد بلغت نسبة الوفيات مائة

فى المائة هكذا وبلا استثناء وقد استدعى الأمر تدخل العلماء بالدراسة والبحث والتحقيق وبذل العناية الفائقة ورغم ذلك كان الاطفال يولدون ويموتون بلا استثناء مع أن غيرهم من اللقطاء فى مستشفيات أخرى أقل رعاية وأكثر إهمالا يعيشون.. لم يكن هناك سبب طبى واحد لتفسير هذا الموت الجماعى حتى فطن أحد الباحثين المدققين الى فارق هام بين مستشفى الموت ومستشفى الحياة .

كان مستشفى الموت لا يستخدم الا الرجال وليس به امرأة واحدة وصدر الأمر بإبدال النساء بالرجال ولدهشة الجميع عاد الاطفال الذين يجمعهم المستشفى للحياة .

ويتساءل الكاتب عن سر حياة الوليد فى نظرة الأم .. هل السر فيما هو أهم وأعمق من الرعاية الطبية والعناية المادية والإعداد العلمى .

عندما عاد ابراهيم أفندى الى البيت ودخل الحجرة رأى نعيمة والى جوارها قطعة اللحم مازالت بها تلك الرعشة أو الهزة الخفيفة التى تكاد لا ترى وكانت نعيمة قد فتحت فم قطعة اللحم وتسكب فيه قطرتين .

الفصل الرابع

يقول الغبى ساعة ولادته مامعناه إنه لم يعرف أمه ولم يعرف أباه.. بل إنه لم يستطع تحديد شكلهما فضلا عن ملامحهما التفصيلية . وأكثر من هذا لم يعرف الغبى أنه يبكى أو ماهو البكاء، ولم يعرف أنه صامت أو ماهو الصمت.. كما لم يعرف أن له فما وأن تلك التى تدعى أنها ولدته تسكب فى فمه قطرتين من سائل. فهو لا يعرف ماهو السائل، ولا يعرف ما هى القطرات . وبدون أدنى مبالغة لم يعرف الغبى إذا ما كان حيا أو ميتا ولم يكترث بأن يواصل الحياة التى لا يعرفها أو يدخل عالم الأموات الذى لا يعرفه أيضا .. وإذا كان الغبى قادرا على أن يدهش.. فان دهشته عظيمة، من ذلك القلق الذى لا يبدو أن هناك مبررا له، على حياته..

ولقد تزايد قلق نعيمة وابراهيم افندى عندما تأكدا أن الوليد يوشك أن يلفظ أنفاسه الأخيرة.. وهو ماأضطر الأم والأب - نعيمة وابراهيم - الى مراجعة مشاعرهما السابقة طوال فترة الحمل. فاكتشفت نعمية أنها لاتريد أن تذهب جهودها السابقة هباء أو تضيع متاعب الحمل بلا فائدة، كما أنها اكتشفت خوفها من أن تكون غير قادرة على إنجاب أطفال أصحاء يواصلون الحياة. وهذا فى حد ذاته شىء هام بالنسبة لها بصرف النظر عن نوع الحياة التى سيعيشها الوليد فيما بعد.. أما

ابراهيم أفندى فقد اكتشف أن أحلامه وآماله سوف تنتهى بموت الوليد فى هذه السن المبكرة وهذا هو مادفعه إلى بذل جهود غير عادية، والخروج فى منتصف الليل للبحث عن طبيب، وهو مشغول بتفكير عميق فى الدين والزواج والمستقبل وغير ذلك من الاشياء التى لا يعرفها الوليد نفسه ولا يكترث بها ..

ومن حسن حظ الكاتب أنه عرف الطبيب الذى جاء ليساعد الغبى على الحياة.. ومن حسن حظه أيضا أن هذا الطبيب كان يكتب مذكراته ولقد جاء بها ولأول مرة اعتراف رسمى بأن الوليد غبى ..

كان الطبيب واسمه برعى .. شابا فى الخامسة والثلاثين.. طويل القامة . نحيف وعليه مسحة بلاهة خاصة عندما تراه وهو يبتسم. وكان كثير الابتسام وهو لم يتزوج بعد لأنه مشغول بأبحاث معقدة عن الأطفال.. وكان لايفهم عواطف الأبوة والأمومة ولا فرق عنده بين جسم طفل أو جسم ضفدعة أو صرصار ومع ذلك كان مشهورا لأن الامهات والآباء لا يعلمون شيئا من طبيعته الفاسدة، ولأنهم يرتاحون إلى ابتسامته البلهاء ويتفاءلون بها .

ومذكرات برعى تعتبر وثيقة هامة فى دراسة الغبى رغم قسوتها التى قد تبلغ حد البشاعة أحيانا .. مما يدعو الى التفكير فى أن به بعض الشذوذ .

وتبدأ المذكرات بذكر الغبى بهذه السطور « جاء فى منتصف الليل أب أحمق يظن أن وليده لا يجب أن يموت، ويندهش لأنه عاجز عن الحياة.. » قال بصوت متهدج :

- ابنى يموت ..

- كيف عرفت أنه يموت ؟

- لا يرضع ولا يتحرك ..

- كم عمره ؟

- أربعة أيام ..

- أواثق أنه حى ؟

- مازال دافئا ..

- ألا يبكى ؟

- أبدا ..

- والبراز ؟

- قليل ..

حاولت أن اطمئنه ، ولكنه صمم على أن أذهب معه.. وكان من المستحيل أن أواجهه بالحقيقة .. وهى أن وليده مثل كل وليد بشرى أعجز من وليد الشمبانزى.. الذى يستطيع الحركة والرضاعة والقبض بأطرافه على الشعر النابت فى بطن أمه.. إنه مثل أى من البشر قد أصابه الغرور، ويتوهم أن وليده قادر على كل شىء منذ اللحظة الأولى لولادته.. ولقد ذهبت مع الأب.. وواجهت انزعاج الأم، وعاينت قطعة اللحم، فوجدت أن اللحم ممتاز والعظم من نوع جيد والتكوين سليم مائة فى المائة. ولكن الذى أدهشنى حقا تلك البلادة غير العادية فى جسد الوليد .. فرغم أنى فحصته وقلبته وقرصته بخفة ثم بشدة لم يلحظها أحد، إلا أنه ظل صامتا لا يصدر عنه صوت ، ولولا انى فحصت حلقه

ولولا أن أمه أكدت أنه بكى مرة أو مرتين لقلت إن هناك خللا فى حباله الصوتية .

وقالت لى الأم خائفة ..

– انه لا يجوع ولا يرضع ..

فنصحتها بأن تطمئن ، وأن كل ما عليها أن تفعله ، هو أن ترضعه بعصر حلمة ثديها فى فمه حتى يتعلم الرضاعة وطلبت منها أن تقرب حلمة ثديها على مسافة سنتيمتر واحد من شفتى الوليد وانتظرت أن تهتز الشفتان ولو فى حركات مهوشة ولكن بلا جدوى .. فطلبت منها أن تلصق الحلمة بالشفتين ومع ذلك لم يظهر أثر على شفتى الوليد.. وهذا دليل على عجز غير عادى فى الوليد، جدير بأن أسجله وأراقبه.. فهذه فرصة نادرة لمشاهدة وليد حى يرفض الحياة ، أو هو عاجز عن الحياة من تلقاء نفسه . وهو يحتاج الى معاونة كاملة من الكبار أو من أمه بالذات.. كشرط لاستمراره حيا .. ومثل هذا الوليد قابل لأن يتشكل بما يفرضه عليه الكبار فهو محتاج اليهم دائما، ولا يستطيع المضى على حسابه الخاص أو مزاجه الخاص حتى فى الرضاعة .. كم أتمنى أن يكون هذا الوليد كما أظن حتى أواصل عليه أبحاثى ..

وبعد ثلاثة أيام كتب برعى ملاحظات أخرى جاء فيها أن الوليد لحسن الحظ مازال يجهل معنى الرضاعة.. ثم كتب يقول «الصعوبة الحقيقية فى أن الوليد لا يعبر عن رغباته» وكأنه لايريد شيئا على الإطلاق ، إنه لا يريد أن يرضع أو يتقلب أو يستريح . حتى انى أخشى فعلا أن يموت وبذلك تقف التجربة عند هذا الحد .. ولقد فكرت فى

الرعاية المتصلة من جانب الأم فهى لا تكف لحظة واحدة عن العناية أو الانشغال به .. مما لا يدعو الوليد الى الشعور بالحاجة وتنمية قدرته على التعبير بالبكاء ليطلب شيئا .. ونصحت الأم بأن تترك وليدها فى حجرة مغلقة ولا تذهب اليه حتى تسمع صوت بكائه ، فلا بد انه سيجوع وعندئذ سيضطر هذا اللعين الى الخضوع والبكاء معلنا عجزه ومعبرا عن حاجته .. وأنا الآن فى انتظار التجربة .

ولكن برعى يدون فى مذكراته هذه الفقرة الغريبة بعد شهر كامل.. «اللعين مصمم على أن يموت ولا يطلب شيئا . إنه ببساطة مازال يرضع بالقوة .. ويحيا بالقوة . ولم يفلح ابتعاد الأم عنه فى اجباره على التعبير عن رغباته ، فالأم تبتعد وتنتظر لساعات وهى تتعذب، بينما هو صامد فى موقفه.. ثم تجرى الأم اليه وترضعه. ولو كان هذا الوليد ابنى لعاندته وتركته حتى يبكى أو يموت .. وليس فى هذا أدنى قسوة ، لأنه إذا لم يتعلم أنه محتاج لأشياء كثيرة مثل اللبن ودفء الملابس والنظافة . وإذا لم يتعلم كيف يعبر عن رغبته وحاجته لهذه الاشياء فلا أمل فى أن ينمو نفسيا .. وحتى الآن من المقرر أن أى وليد يتعلم بتعرضه لحالتين متناقضتين ، فهو فى الحالة الأولى ينعم بحنان ورعاية أمه.. ثم فجأة يشعر بابتعادها عنه بسبب انشغالها بحياتها مع الآخرين.. مثل انشغالها بصلاتها الجنسية مع الأب. وهى صلة ليست موسمية كالحيوانات.. بل هى صلة مستمرة ومن الممكن حدوثها والانشغال بها فى أى وقت .. مما يضطر الأم الى الابتعاد عن الوليد حتى وهو يبكى ويطلب الطعام.. وبذلك تحدث له صدمة عندما يطلب الرعاية والحنان فلا يجدهما ويضطر إلى التعبير عن نفسه بالبكاء .

ويجب أن أعترف بأنى فشلت حتى الآن فى أحداث هذه الصدمة لهذا الوليد أنه لا يدرى شروط لعبة الحياة.. أن يحتاج إلى أشياء.. وأن يعرف كيف يعبر عن حاجاته هذه .

ثم تأتى ملاحظة أخرى لبرعى إذ يقول ، «خطر لى أن هذا الوليد سيكون فى مستوى الحيوانات العجماوات مثل القرود مثلا. وراجعت معلوماتى فوجدت كم أنا مخطىء فى هذا الظن . إن الشمبانزى الرضيع منذ لحظات ولادته الأولى قادر على الرضاعة بمزاجه الخاص وقدرته الخاصة الفطرية .. وهو ليس فى حاجة إلى رعاية أمه .. اذ هى أحيانا تأتى من الحركات ما يجعلها تبعد ثديها عن فمه ، وهذا أحد الأسباب التى تجعل وليد الشمبانزى حيوانا غير اجتماعى ، لانه لايجد فائدة كبرى من الاتصال بالآخرين حتى لوكان هؤلاء الآخرون تمثلهم أمه .. أما صاحبنا الوليد فهو اجتماعى مائة فى المائة ، لأنه بغير الآخرين وعنايتهم لن يعيش لحظة واحدة .. ولا ينقصه الا شىء واحد .. وهو أن يعلن ويعترف بحاجته إلى الآخرين . ولكنه كمن يهددنا قائلا :إذا لم تهتموا بى فسأتركمكم وأموت. وهذا دليل على الذكاء الخارق من ناحية هذا اللعين .. ولعله اكتشاف وصل إليه الأجنة حديثا طبقا لنظرية التطور فقرروا أن يعلنوا منذ البداية شروطهم ، فإما أن يمدهم المجتمع بكل حاجاتهم حتى ولو لم يتطلبوها أو ينسحبوا .. .

ومع ذلك فهأنذا أفحص كل وليد أذهب لعيادته أو يأتى لعيادتى لعلى أجد وجها للشبه بينه وبين «محمود» وأفجع لأن هذه النظرية الجديدة لم تعمم بعد بين الأجنة ولعلها مازالت فى طور الدراسة والتجربة .. فإذا نجح الوليد محمود . جاء بعده الأجنة الآخرون بنفس فلسفته فى

الحياة.. على أى حال هذا المحمود رغم أنه فى الشهرين الأولين من حياته يشغلنى كثيرا .. وبشكل غير عادى حتى بدأت أخشى على نفسى من الجنون .. أو يخيل إلى أحيانا أن «محمود» هو الذى يجرى تجاربه علي.. لا أنا الذى أجرى تجاربى عليه .. ولقد سألت والده إبراهيم أفندى عن المستقبل الذى يعده لابنه عندما يكبر .. فقال لى مبتسما إنه سيجعله يدرس القانون ويصبح وكيل وزارة الحقانية .. فلما سألته أهو مصمم على الحقانية بالذات ، أجاب إن المهم أن يكون وكيلا للوزارة على الأقل ، ولست أدرى لماذا قلت له واثقا إن ابنه سيصبح فعلا وكيل وزارة على الأقل .. لأنه بحكم المنطق الطبيعى لحالته الراهنة لن يكون الا كما يريد الآخرون . ومهمتى كطبيب أن أصنع من قطعة اللحم هذه انسانا ، وأن أبدأ معها من البداية وحسب الملاحظات الطبية المعروفة عن الأطفال

فأحضرت معداتى وأجريت تجربة على الأضواء الملونة .. فصوبت إلى عينى محمود الضوء الأبيض والأصفر والأحمر والأزرق ، ثم نبهت اذنيه بالصفيح وطرق الخشب ودقات جرس نحاس ودقات جرس قوى وكانت نتيجة هذه التجارب هى الفشل التام فى تنبيه الوليد.. فضلا عن أن عضلاته غير نشيطه ولا تتحرك فى أى اتجاه ولم أجد أمام هذه الحالة التى تكاد تدفع إلى اليأس ، إلا مخرجا واحدا هو الإلحاح والمثابرة .. فنصحت أمه بأن تبكى وهى ترضعه وتظل تبكى حتى تبدر منه شهقة بكاء . وطلبت منها أن تنبهه بالأصوات والأضواء وتحرك رأسه فى اتجاه هذه المؤثرات الضوئية والصوتية.. فلما استرابت فى سلامة نصيحتى .. قلت لها إن التكرار يعلم الحمار .. وبدا على الأم الاستياء لأنى أضفيت لقب حمار على ولدها ولكنها استسلمت ووعدتنى بتطبيق نصائحى

بدقـة .. ثـم تأتى هذه الملاحظة التى نقف عندها .. إذ يـعلن الطـبـيب .. أخيرا نجحت التجربة وثبت أن التكرار يعلم الحمار أو يعلم محمود . فقد بدأ يبكى ويتنبـه مـقلدا أمـه . وهذا الذى يفـعله الآن وهو فى الشـهـر السـادس .. يفعله الطفل العادى فى الشهر الأول أوالثانى.. ولكنى لست واثقا أن حركات الطفل أو انفعالاته تعبر عن شىء بل هو مجرد تقليد سطحى كما يفعل القرد المدرب وهو يعجن عجين الفلاحة دون أن يدرى أنه يعـجن أو أنه يقلد فـلاحة. والتشـخيص الذى وصلت اليه الآن هو أن هذه حالة طفل غبى وغباؤه منقطع النظير فهو يتعلم ببطء.. وببطء شديد شأن الغبى الاصيل، وهو لا يفهم مايتعلمه وكان الله فى عون والدته . أما تلك الفكرة الخرافية عن أنه طفل صاحب فلسفة جديدة فى الحـياة، فواضح أنها مجرد تخريف أصـابنى فى لحظة من لحظات عجزى عن تفهم حقيقة هذا الوليد الغبى ..

ويكتفى الكاتب بهذا القدر من مذكرات هذا الطبيب الغريب بعد أن انتهت بهذا التشخيص الطبى الصريح.. بغباء محمود وأصالة هذا الغباء الذى لازمـه منذ لحظة ولادته.. غير انه من الضرورى نقد هـذه المذكرات فى نقطتين على الأقل، أولا فى تسرع الطبيب الى الحكم بالتخريف على ذلك الخاطر الذى خطر له بأن الوليد ينبئ عن فلسفة جديدة فى الحياة تنادى المجتمع بأن يمنح الانسان حقوقه كاملة وبغير مطالبة، والا ترك الانسـان الحياة ببساطة ومات. فكان من واجب الطبيب أن يتمـهل ولا يسبق الاحداث، فمـا أدراه-أن ذلك الخاطر الذى ظن أنه تخريـف ليس تخريفـا. وثانيـا لان الطبيب وقع فى الخطأ الشائع، فاتهم الغبى بأنه غبى دون أن يحدد لنا معنى دقيقا للغباء.. وهو مالا يصح أن يتهرب منه رجل باحث يدعى العلم والفهم مثل الدكتور برعى ..

على أن هذا لايمنع صحة الوقائع والملاحظات التى سجلها برعى بصرف النظر عن الاحكام التى يصل اليها .. فمحمود كان يتعلم ببطء شديد ، وكان يتعلم دون أن يفهم مايتعلمه ، وكان مايأتيه من حركات مجرد مظهر سطحى لاعمال بليدة جامدة فى نظرنا نحن الاذكياء .

ولقد أثارت هذه البلادة الطبيب برعى فى زيارته الأولى لمحمود وهو فى اليوم الرابع من ولادته ، حتى انه لم يتمالك نفسه، واقدم على تلك الفعله القاسية فقرص الوليد خفية حتى يدفعه الى الصراخ. ونفس هذا الحادث نجده يتكرر فى حياة الغبى وهو يحتفل بعيد ميلاده الأول. إذ كان بين المحتفلين صبى فى الثالثة عشرة من عمره وجد نفسه مع «محمود» فى حجرة واحدة وليس معهما أحد وحاول الصبى أن يلاعب «محمود».. فأتى بحركات كثيرة بيديه ووجهه وأخرج من فمه اصواتا مضحكة ومثيرة كانت فى العادة تضحك الاطفال وتثير ابتساماتهم أو بكاء هم ، ولكن «محمود» ظل بليدا أمام هذه الحركات يرقبها وكأنه لا يرقبها ، وليس على وجهه ما ينم عن أى انفعال. نظرات جامدة صماء لا تكترث بشىء ، وحمله الصبى المراهق وزغزغه ، ورفعه فى الهواء ورقص به فى الحجرة .. بلا نتيجة وتضايق الصبى وفى عناد بدأ يقرص محمود ليستفزه، قرصات خفيفة فى وجنتيه وفى فخذيه، ومحمود تائه فى صمته وجموده، وخرج الصبى عن طوره فاشتد فى قرصاته واشتد أكثر وأكثر والطفل الغبى لا يحس. لا بكاء ولا أى انفعال. وأنشب الصبى اظافره فى لحم الطفل وقرصه حتى كاد يقطع لحمه ويسيل دمه، وبدت الشراسة واضحة فى وجه الصبى. والتجهم والحقد يملآن وجهه وفجأة بكى محمود .. بكاء رتيبا مملا .. ونظر إليه الصبى متشفيا ،

ولكنه لم يشعر أبدا بالراحة وشفاء الغليل.. فلأمر ما ، كان يحس أن بكاء محمود لاصلة له بالالم أو الضيق وإنما هو مجرد استجابة سطحية لتلك التجهمات الشريرة التى ظهرت على وجه الصبى وهو يقرص محمود بقسوة.. وأسرعت نعيمة الى ابنها الباكى، فوجدته مع الصبى . وكانت فى قمة دهشتها لبكاء محمود على غير عادته، ونهرت الصبى وسألته بحدة عما فعل بالطفل، وأجاب الصبى انه بكى وحده. ولكن الأم كانت تعلم أنه يكذب، فلا بد أن الصبى قد تجهم أو بكى أمامه حتى يدفعه الى البكاء وهذا تصرف غير لائق من صبى جاء ليأكل الجاتوه ويحتفل بعيد ميلاد محمود .. وفحصت نعيمة ابنها فوجدت علامات القرصات وانهالت على الصبى باللكمات واللطمات.. ومحمود مازال يواصل بكاءه الرتيب الممل، حتى ابتسمت نعيمة فى وجهه فابتسم . فهو يبكى انعكاسا لبكاء أو يبتسم انعكاسا لابتسام، وفكر يومها الصبى المراهق فى أن يخنق محمود بيديه حتى يموت .

ولا يسبق الكاتب الحوادث، إذا ماقال إن مافعله الصبى مع محمود وهو فى السنة الأولى هو نفس ما فعله طبيب العيون المشهور مع محمود وهو فى السابعة من عمره، وكان محمود قد تعلم فى ذلك الوقت أن يصرخ كلما اقتربت من جسده آلة من الآلات الحادة أو الرفيعة بعد أن رأى أمه تفعل نفس الشيء وهى تأخذ حقنة فى فخذها لعدة أيام وتصرخ..

وكان طبيب العيون قد أرقد «محمود» على سرير الكشف واقترب منه بإحدى الآلات الدقيقة ليضعها على عينيه ، وإذا بمحمود يصرخ ويرفع يده تماما كما فعلت أمه وهى تأخذ الحقنة فى أكثر من مناسبة . وعبثا

حاول ابراهيم افندى أو الطبيب أن يقنعا محمود بالاستسلام للكشف ، وأمسك الطبيب بالآلة وقربها من عينيه ليثبت للطفل أنها لاتؤلم ثم قرّب الآلة من عين ابراهيم افندى ليثبت مرة أخرى أنها لاتؤلم .. وتكلم الطبيب بالعطف والعقل والحكمة والملاينة حتى فرغت جعبته ومع ذلك كلما حاول أن يقرب الآلة من عين محمود صرخ صرخة مزعجة ، بل انه أصبح يواصل الصرخات بلا مبرر وبصوت آلى بليد لا انفعال فيه، حتى كاد الطبيب أن يجن وفقد اعصابه فعلا.. فاذا به يهجم على محمود غير مهتم بأنه رجل ضخم ومحمود طفل صغير ويصفعه على وجهه ، ثم يصرخ فى ابراهيم افندى قائلا فى حدة وعصبية إن ابنه حمار ، وانه يرفض علاجه ..

وانسحب الأب بابنه من العيادة عائدا الى البيت ، والطفل مازال يصرخ وقابلتهما نعيمة عند الباب ، وقال لها ابراهيم افندى منهارا :

الولد غبى لا يفهم يانعيمة .. الدكتور رفض علاجه وصفعه على وجهه وقال إنه حمار .

الفصل الخامس

كان الذباب هو السبب في مرض عينى الغبى إذ كانت الذبابة تحط على وجهه وتختار المكان المناسب ، أنفه أو شفتيه أو رموش عينيه أو حافة أحد جفنيه، وتمتص الذبابة مايروق لها من لعاب أو دموع.. والغبى لا يحرك ساكنا ، لا يهشها وكأن بينه وبين الذبابة ألفة من نوع خاص لاندركه نحن الأذكياء..

فالمنظر المألوف للغبى الآن، وهو فى السابعة من عمره أن له وجها بليدا فيه عينان ضيقتان جامدتان كأنهما لا تريان، ولا تفارق وجهه ذبابة أو أكثر على الفم أو العينين ..

وكانت نعيمة لا تكف عن هش الذباب عن وجه ابنها مادامت بجواره، وكان ابراهيم افندى لا يكف عن الصراخ فى ابنه أن يهش الذباب عن وجهه ، والولد لا يحرك يده ، فهو يسمع الصراخ .. فى بلادة تامة، حتى يمسك الأب بيد ابنه ويلوح بها هاشا الذباب، وأحيانا يمتثل الولد لصراخ الأب فيحرك يده، وكأنه لا يحركها .. ويهش الذباب وكأنه لا يهشه، لأن الذباب لا يتحرك ولا يخشى يد الولد ..

وما كان بين الغبى والذباب ، هو نفس ما كان بين الغبى وبقية الحيوانات والطيور والحشرات فهو لا يخشى القطط أو الكلاب ، وحدث عصر يوم أن كان الغبى يقف مع بعض أولاد الجيران فى الشارع

عندما هجم عليهم كلب يعوى عواء ضاريا وفر الأطفال مذعورين وبقى الغبى ، وكان فم الكلب مفتوحا وقد برزت أنيابه والتقت النظرات.. نظرات الكلب مع نظرات الغبى .. ثم عدا الكلب وجرى مبتعدا ... وفى حديقة روضة الاطفال فوجيء الاولاد وهم يلعبون بالغبى وهو يمسك حبلا طويلا فى يده، وكان الحبل يتلوى ويلتف حول ذراع الغبى ، وصرخ الاطفال.. فقد كان الحبل ثعبانا، وفى لحظات اندلعت الصرخات فى الروضة وتفرق الاطفال ، وأغمى على احدى المشرفات.. والغبى والثعبان معا، حتى جاء عم حسنين واختطف الثعبان وقتله ، وفى ذلك اليوم تحول الغبي من طفل مغمور الى بطل، والتف الأولاد حوله يتلهفون على كلمة منه ويطلبون منه أن يقودهم فى ألعابهم ويتنافسون على ضمه الى عصاباتهم ، ولكن الغبى ابتعد عنهم، أو هم الذين يئسوا منه فابتعدوا عنه.. وأثناء تلك الزيارة التى قام بها الغبى مع والده ابراهيم افندى لحديقة الحيوانات حدث أن ركب الأب وولده الفيل الكبير وكان يقوده حارس عجوز يركب فوق تلك المنطقة الضخمة بين رأس الفيل وجسده والتى نستطيع أن نطلق عليها – دون كثير من المبالغة – رقبة الفيل وكان الحارس ممسكا بسلاح أبيض على شكل منجل ، يقربه من عين الفيل ويهدده به ..

وقام الفيل بدورته المعتادة ، ثم عاد الى مكانه الأول بالقرب من سلم خشبى كالبرج ليهبط الركاب ويبدو أن الفيل ضايقه منظر المنجل أو لم يعجبه التلويح به أمام عينيه ، فثار فجأة .. وتحرك كالثور الهائج .. وفزع ابراهيم افندى ، وصاح بكلمات مثل .. يانهار أسود ، وأغيثونا ، وغير ذلك من الكلمات التى تقتضيها المناسبة ، أما الغبى فلم يظهر أى نوع من الانزعاج أو الخوف . وخلال تلك اللحظات المجنونة التى انطلق

فيها الفيل بين الصيحات وإطلاق الصفارات وهرولة الناس وتجمعهم وتفرقهم، كان الأب الكبير العاقل ابراهيم افندى .. يتشبث بولده الغبى محمود ، وكان الأب ينظر فى عينى ولده ليستمد منهما القدرة على الصمود ومواجهة الكارثة .. فلما هدأ الفيل وهبط الجميع أعلن الأب فخورا متباهيا أن ابنه شجاع لا يهاب المخاطر ، وربت على كتف ولده فى حنان وإعجاب، وصدر أكثر من تعليق من بين المشاهدين والحارس ..

غير أن هذه المزايا والبطولات التى أظهرها الغبى ، سرعان ما كان يطويها النسيان ، فمثل هذه المواقف التى تبرر بطولة الغبى لا تحدث الا نادرا ، وليس من عادة الأذكياء أن يتأملوها طويلا ، فضلا عن أن الغبى لا يساعدنا على تذكرها ، فهو لا يتحدث عنها ولا يهتم بها ولا يسعى لاستغلالها والاستفادة منها وكأنها لا تعنيه فى شىء .. وهكذا ضاعت هذه البطولات ولم يلصق بالاذهان سوى بلادة الغبى، وذلك الوصف الذى أطلقه عليه طبيب العيون المشهور بأنه حمار ..

ولقب حمار لم يزعج الغبى، وهو ما نتوقعه .. ولكنه أزعج ابراهيم افندى ، حتى أنه فقد أعصابه تماما، فتشاجر مع نعيمة ، اتهمها بإهمالها لتربية الولد وافسادها له وجعل منها مسئولة عن بلادته .. وهو اتهام ظالم كما نعلم ولكن الأم تقبله فى خضوع.. وبإحساس بالذنب وهى التى كانت – بفطرتها – تدرك أن ولدها فى حاجة كاملة ومطلقة لرعايتها .. فهى التى علمته كيف يرضع، وكيف يبكى وكيف يبتسم وكيف يحرك عينيه ، وكيف يحرك يديه، وكيف يمشى ، وكيف ينطق بالكلمات . ولقد عانت الأهوال .. وصبرت صبر أيوب حتى حققت نتائج مذهلة ، وهى تشعر – بلا وعى منها – بأنها لم تلد « محمود » الجسد فقط .. بل هى ولدت محمود بجسده وحركاته وانفعالاته وكل مافيه من

انسانية .. ومع ذلك فربما اخطأت فى شىء.. ولعل ابراهيم افندى على حق فى اتهامه . ومما ضاعف من شعور نعيمة بالذنب ، أن اتهام ابراهيم افندى يفضح تلك العلاقة الخاصة التى نشأت بين نعيمة وابنها محمود . فنعيمة تعامل محمود - بلا وعى منها - وكأنه جزء منها ، كأنه قطعة من جسدها .. فهو مثل ثدييها أو ساقيها ، أو شعرها ، أو قوامها .. وهى تعتنى بمحمود كما تعتنى بتلك الاجزاء المتفرقة من جسدها .. فنتسطيع أن نقول دون أن نتورط فى خطأ.. أو يتهمنا أحد بالمبالغة .. إن اعجاب نعيمة بشعرها وهو يطول ويتفرع فوق كتفيها هو من نفس نوع اعجاب نعيمة بمحمود وهو يطول وينمو .. ولا فرق بين احساس نعيمة وهى تربت على خد محمود وتشعر بطراوته وبلحمه البض ، وبين احساسها وهى تتحسس ثدييها فى لحظة إعجاب وتأمل ودراسة لجسدها .. والمهم هو أن نقرر بوضوح أن نعيمة لم تفكر فى هذا ، إنها لم تدرس نوع احساساتها ولم تصل الى هذه الملاحظات التى يتجرأ الكاتب ويدونها فى هذه السطور.. ولكن هذا لاينفى أن هذه الملاحظات صحيحة وحقيقية .. لذلك شعرت نعيمة بالذنب .. لانها تشعر أنها مسئولة عن محمود ابنها ، كما لو كانت مسئولة عن رشاقتها مثلا.. وعندما قال لها ابراهيم أفندى إن طبيب العيون قال عن ابنهما إنه حمار كان رد الفعل بالنسبة لها كما لو كان هذا الطبيب الوقح قد اتهمها بالقبح أو البرودة المفرطة أو ثقل الدم.. ولم تفهم نعيمة أكثر من هذا ، بينما كان ابراهيم افندى يفكر فى اشياء اخرى لا صلة لها بما تفكر فيه نعيمة .. إنه يفكر فى مستقبل هذا الولد ، وكيف سيواجه الحياة ومتاعبها وأحداثها .. إنه يفكر فى التعليم والشهادات ثم الوظائف .. يفكر فى محمود وهو شاب ، ويتمنى أن يكون نابغة عصره ، ويخشى أن

يكون خاملا أو بلطجيا أو موظفا مغمورا أو كاتبا - مثله - فى ادارة المستخدمين بوزارة الحقانية ..

وبعد أن هدأ الشجار بين الزوجين ، قالت نعيمة لابراهيم افندى .. وهى تعانى من نوبة حادة من نوبات الشعور بالذنب ، إن الولد ولده ، وإنها ستتركه له ليتولى تربيته بنفسه . قالت هذه الكلمات وكأنها شهيدة وكأنها تدعوه لأن يبتر ثديها .. وهى تعلم أنه لن يفعل ..

وجذب ابراهيم افندى الغبى من أذنه وقرر أن يمتحنه فى دروسه ، جدول الضرب ، الجمع .. الطرح .. وفى هياج اليائس صرخ ابراهيم افندى فى الغبى مطالبا اياه أن يعد من واحد الى عشرة ثم انهال عليه بالضرب ولم يكف حتى صرخت نعيمة وهى تحول بينه وبين ابنها ..

وابتسمت ناظرة الروضة وقالت لابراهيم افندى إن بعض الاطفال يتأخرون فى الفهم وطمأنته وطلبت منه أن يشرف بنفسه على المذاكرة لولده ووافقها ابراهيم افندى قائلا لها إن هذا هو ماقرره فعلا .. وبذلك تحولت لياليه الى جحيم .. الولد غبى لا يريد أن يفهم .. ابنى غبى .. حمار.. بجم.. لوح.. ابنك ياهانم لن يفلح ، ورغم ذلك لم يصدق الأب ما يقول .. فكان يعاود الكرة تذرعا بالصبر وبالعصا وبالصفعات والشتائم .. تماما كما يفعل صاحب الحمار مع الحمار ، حتى يأتى الوقت الذى يتعلم فيه الحمار كيف يقف وكيف يتحرك ويستجيب لنداءات مثل «شى» « حا » ويعرف طريقه فيمشى فيه حتى ولو كان صاحبه نائما أو غافلا .. ولقد عرف الغبى طريقه .. فاستطاع ان يجيب على الاسئلة وحقق انتصارات باهرة عندما أجاب مثلا بأن حاصل ضرب خمسة فى

سبعة هو خمسة وثلاثون وقال ابراهيم أفندى لنفسه إن هناك أملا .. وفى ذلك الوقت ، وكان فى اواخر العشرينيات أو أوائل الثلاثينيات من هذا القرن بدأت تروج عند رجال التربية نظريات عن الذكاء حملها بعض طلبة البعثات القادمين من انجلترا وأمريكا .. وذهب أحد هؤلاء المربين الأفاضل الى روضة الأطفال ليختبر ذكاء الصغار .. وكان الرجل يرتدى ملابس سوداء فى حداد .. وجلس فى حجرة الناظرة وأمامه «طاولة» كالتى يلعب بها الرجل فى القهوة وجاء دور الغبى ليدخل على المربى الفاضل الذى طلب منه أن يرتب حجر الطاولة ، وهو يرقبه بنظرات فاحصة مدققة .. ولم يذعن الغبى لطلب المربى.. الذى شرح له من جديد وشجعه على أن يمد يده.. ولكن الغبى احتفظ بوقاره وصمته ومراقبته الجامدة لحجارة الطاولة البيضاء والسوداء ورفض فى اصرار - أو هكذا خيل للمربى - أن يغير وضع الحجارة ..

وهنا يتدخل الكاتب لينقل لنا هذا الحادث الفريد من ناحية الغبى .. الذى كان يرى سواد ملابس الرجل ويرى أسنانه .. ويرى لسانه داخل فمه .. ويسمع صوته يقول كلمات .. ويرى رقبته الطويلة.. ويرى الحجارة .. ويرى خشب الطاولة ويرى الناظرة جالسة الى مكتبها ، ويرى البساط الاخضر على أرض الحجرة .. ويرى طرف انفه هو .. ويرى يدى الرجل تتحركان وتعبثان بحجارة الطاولة وصوته يرتفع .. والناظرة تقف وتدور حول مكتبها وتقترب منه .. ثم تنحنى عليه وتربت على ظهره .. وتتكلم مع الرجل ذى الملابس السوداء وكانت رقبة الرجل تتلوى وفيها شىء بارز يرتفع وينخفض .. والرجل يزعق والناظرة تبتسم.. والرجل

يقول هذه الكلمات .. أيعجبك الوضع كما هو ؟ الاسود مع الابيض أم الابيض وحده أم الاسود وحده .. فوق بعض أم جنب بعض .. ثم يخرج الرجل من جيبه نقودا .. ما هذا ؟ مليم ؟ تعريفة؟ صاغ ؟ ماهو الصغير؟ ماهو الكبير؟ عينا الرجل .. فتحتا أنفه .. أصابع الناظرة .. صدرها .. ونهض الرجل وقالت الناظرة للغبى «اذهب» وكان يعرف طريقه فذهب ..

وفى إحدى الأمسيات قال ابراهيم أفندى لنعيمة إن المدرسة أجرت اختبار ذكاء .. وإن الولد لا عيب فيه .. وإن حاله سوف يتحسن وطلب منها أن تطمئن وتشترى لمحمود لعبا .

وكانت الناظرة قد أطلعت ابراهيم أفندى على تقرير المربى الفاضل عن حالة ابنه، وجاء فى التقرير أن الولد ليس معتوها ولكنه متأخر الفهم فقد أثبت امتحانه أنه ضعيف الملاحظة ولا يستفيد من الخبرات السابقة.. وهذا التأخر العقلى من الممكن علاجه بتحريك انتباه الولد من ناحية، وقد يتحقق ذلك بإحاطته باللعب اللافتة للنظر والتى تجذب الانتباه، أما الناحية الثانية للعلاج فهى بتقوية وتنمية روابط الولد بأفراد أسرته ..

وبعد أن فرغ ابراهيم أفندى من قراءة التقرير سأل الناظرة فى غير فهم وتوسل إليها أن تساعدة بالشرح وقال لها إنه أبعد الولد عن أمه ، وإنه سيتولى بنفسه المذاكرة له وتأديبه .. فهل هذا تصرف سليم ؟ فطلبت منه الناظرة أن يعيد صلة الأم بابنها ويتركها تهتم به ، وتبالغ فى الاهتمام به ، حتى ولو كان ذلك على حساب المذاكرة .. وطلبت منه أن يشترى لعبا كثيرة لابنه .. من ذلك النوع الذى يثير ضجة .. مسدس يفرقع .. أو عربة حريق تدق أجراسا أو «بومب» .. ثم عادت وقالت له ألا

يفرط فى تدليل ابنه .. ثم الملاحظ أن هذه الحالة تنتاب أكبر طفل فى العائلة أو أصغر طفل فى العائلة بسبب الإفراط فى تدليلهما ... ومحمود هو أكبر طفل فى العائلة ..

وخيل لإبراهيم أفندى أنه فهم ..

أما الكاتب فهو يسخر من هذا التقرير ومن المربى الفاضل الخبير فى الذكاء والذى يرتدى الملابس السوداء .. فاذا كانت مشكلة الغبى هى فى الملاحظة فنحن نعلم وقد تتبعنا الغبى أثناء امتحانه أنه لاحظ الكثير .. أو أن عينيه على الأقل قد التقطتا صورا كثيرة ، فهو لم يكتف بالتقاط صور الطاولة وأحجارها ، كما فعل الأطفال الأذكياء .. إنما التقط صور فتحتى أنف الممتحن ولسانه .. ورقبته بذلك الشىء البارز المتحرك فيها .. وأصابع الناظرة وصدرها والبساط الأخضر وغير ذلك من الصور الكثيرة التى لم يلاحظها لا الممتحن ولا الناظرة .. وإذا كان هناك شىء لم يفعله الغبى ، فهو أنه لم يخضع لرغبات الممتحن.. وإذا ناقشنا هذا الرفض على إنه قضية موضوعية لقلنا إنه لا يعنى مطلقا أى شىء سوى أنه رفض أو امتناع عن استجابه فاذا علمنا أن حضرة المربى الفاضل يعتمد على نظرية فى الذكاء .. ثبت أنها خاطئة بعد ذلك بعشر سنوات وفندها جميع العلماء الكبار فى العالم ونبذوها لانتابنا شك كبير فى قيمة التقرير وفى قيمة الممتحن العملية .. ولقد حاولت الناظرة أن تشرح التقرير لإبراهيم أفندى فقالت كلمات مبتسرة ، لأنها بدورها لم تفهم التقرير ولم تؤمن بجدواه .. فعندما نهضت من مكتبها وذهبت إلى محمود أثناء جلوسه مع الممتحن .. كانت تريد إسكات الرجل الذى رفع صوته فى عصبية وهو يتوسل الإجابة على أسئلته من محمود .. وكان من رأى الناظرة أن الممتحن رجل مضحك وشاذ .. وفى مساء ذلك

اليوم روت الناظرة هذا الحادث لبعض صديقاتها ، وهى تضحك ، واتهمت الممتحن الذى أرسلته الوزارة بالجنون .. وكانت تشعر بإحساس غامض يدفعها للإعجاب بمحمود على نحو ما .. لأنه أذل الرجل وأفقده أعصابه وحوله إلى بهلوان مضحك بعد أن كان أول الأمر يتظاهر بالوقار والقنزحة التى تتلبس أولئك الذين يتعلمون فى الخارج ..

والكاتب يؤيد الناظرة فى موقفها ، ثم يضيف إلى ذلك أن الغبى رغم غبائه الأصلى – ليس غبيا أو متأخرا عقليا بسبب حكم أمثال هذا الممتحن أو غيره ممن يدعون الذكاء لأن أحكام هؤلاء تافهة وخاطئة وتعتمد على نظريات لا تقوى على البقاء .. وهى تتناول الغباء بسطحية مخجلة .. ولعل ذلك هو أحد الدوافع الرئيسية التى دفعت الكاتب إلى كتابة هذا البحث الطويل عن الغباء ..

أليس من العجب أن الذين يدعون الذكاء لا يعرفون حقيقة الغباء .. وأنهم يحكمون ضد الغباء ويسخرون منه ، وهم ليسوا واثقين – عن صدق ويقين – من أنه أقل شأنا من الذكاء ..

إن الموقف المخلص الوحيد الذى صادفناه حتى الآن ، هو موقف نعيمة ، التى قبلت الغبى ورضيت به لمجرد أنه حى ، وأنه موجود ، ولأنه – كما تتصور هى – امتداد لها أو جزء منها .. ولأنها ترفض أن تخضعه لأحلامها كما يفعل إبراهيم أفندى وترفض أن تمتحنه كما فعل الفاضل خبير الذكاء فهى تحافظ عليه كما هو .. وتعامله وتحبه كما هو دون أحكام أو طلبات .. أى بدون مقابل وتنتظر منه ما يستطيع هو أن يقدمه لها لا أن تفرض عليه أن يقدم لها ما تريد هى أو يقدم لها ماليس عنده ، ولقد رأينا أن الغبى يستطيع أن يقدم الكثير مما لا يستطيع أن

يقدمه الأذكياء .. فهو قادر على أن يمسك بثعبان ويلعب معه .. فى الوقت الذى أغمى فيه على المشرفة - الذكية - وهى ترى الثعبان فى يدى الغبى ، ورأيناه يسمح للكلب أن ينشب أظافره فى صدره ورأيناه يمنح الصمود والثبات لأبيه فى موقف الفيل الهائج .. وصحيح أن الأذكياء قد نظموا حياة مجتمعهم دون حاجة منهم إلى اللعب مع الثعابين أو عدم الخوف من الكلاب المسعورة أو الأفيال الهائجة .. ولكن من هو الذكى القادر على إقناعنا أن نظام المجتمع سيستمر على هذا النحو ، وسيتحدد بتلك الآفاق ، هذا مجرد سؤال يلقيه الكاتب بكل إخلاص حتى يحين موعد الإجابة عليه ..

وكان إبراهيم أفندى يجلس فى سرادق عزاء فروى لمن حوله من معارفه متاعبه مع ولده محمود فلم يأخذوا الأمر على أنه أكثر من موضوع لقضاء الوقت ، ولم يدركوا أن حزن إبراهيم أفندى حقيقى ، وظنوا أن لهجة الأسى والتجهم البادى على وجهه بسبب موقف العزاء .. لا بسبب ذكر محمود .. وقد قال أحد هؤلاء المعارف إن الأولاد يستفيدون عندما يكبرون وإن التأخر العقلى ينقلب فيما بعد إلى نشاط عقلى ، والعكس الصحيح ، فالأطفال الذين يبدون ذكاء مبكرا يسوء حالهم فيما بعد ولم يكن المتفلسف يعنى ما يقول ، أو على الأقل لم يكن يعنيه أن يكون دقيقا فى كلامه ، ومع ذلك اطمأن إبراهيم أفندى لما سمعه ، فتابع المقرىء بشغف وشرب فنجانين من القهوة السادة ..

وفى أثناء غياب إبراهيم أفندى عن البيت ليؤدى واجب العزاء .. جلس الغبى بجوار أمه كعادته كل مساء ، لتحدثه وتروى له القصص

بينما تلعب بأصابعها فى شعره باحثة عن السمسم وهو وصف مهذب للقمل والسبان ..

وكان الغبى يشترك فى الحديث أحيانا بكلمات متقطعة ، يكرر فيها كلاما سبق أن سمعه عشرات المرات .. كأن يقول «البنت نبوية حرقت البامية» وهو ما كانت تقوله نعيمة طوال اليوم لزوجها ولنفسها ولجدران البيت ، وترد الأم على ولدها «آه .. حرقت البامية» ثم تستطرد نعيمة فى الكلام عن نبوية وجهلها «بنت عبيطة ليس فى رأسها مخ» فيقول الغبى «عبيطة» ثم لا يكمل جملته .. وتسأله نعيمه «ذاكرت دروسك ؟ انتهيت من الواجب» فيفتح فمه ثم يتوه منه الكلام فلا يجيب ، فتقول نعيمة فى حنان «أنت لم تذاكر دروسك أبوك خرج وأنت تلعب» .

فى هذه اللحظة ، قال الغبى تلك الجملة التى يسجلها الكاتب بنصها . قال «بابا مات» وأنزعجت الأم . وجمدت أصابعها فى شعر الغبى وهمست وهى التى تريد أن تصرخ «ماذا تقول» ولم يجب الغبى ، وأنكرت نعيمة ما سمعت ، ولكنها واثقة أنها سمعت . وكان بدنها يرتجف والبرودة تسرى فى ظهرها . ويداها ممسكتان بوجه الغبى ، تهزه وتنهره عن مثل هذا الكلام ..

ولما عاد إبراهيم أفندى إلى البيت .. كان الغبى قد نام والقلق مازال ينهش نعيمة بغير مبرر وكادت أن تعترف لزوجها بما سمعته ، ولكنها لم تجرؤ ودفنت الكلمات فى صدرها .. وهى تقنع نفسها بأن الولد سمع عن ذهاب أبيه للعزاء فى الميت فقال ما قال ..

بعد عشرة أيام عاد إبراهيم أفندى إلى البيت مبكرا على غير عادته، ودخل حجرته ووراءه الغبى .. وكانت نعيمة فى المطبخ لا تدرى أن زوجها

قد عاد .. وخلع إبراهيم أفندى ملابسه وهوى على السرير وهو يلهث ، ووجهه يتقلص ويداه تتحركان فى ألم ، وصوته يتحشرج ، وصدره يرتفع وينخفض ، وعيناه تسألان ، وتفزعان . والغبى يرقبة أو يراه تنعكس على ذاكرته صور .. حتى تراخت اليدان وانخفض الصدر وارتفع شخير قصير ثم خمد ..

والكاتب مضطر فى هذه اللحظة إلى الاعتذار للأذكياء ، الذين ضاقوا به ، وأصبحوا يتربصون له .. حتى وجدوا الآن فرصتهم للانقضاض على الكاتب واتهامه بالجهل والتخريف . فالذكى يقول هل تريد منا أن نصدق هذه الخرافة وأن هذا المحمود قد تنبأ بالغيب فأفلت لسانه بتلك الجملة «بابا مات» قبل أن يموت إبراهيم أفندى فعلا بعشرة أيام؟.

وما دليلك أيها الكاتب - العبقرى - على وجود صلة بين ما تفوه به هذا الغبى الذى تشغلنا به وموت إبراهيم أفندى .. إن أسلم الفروض وأعقلها - إذا صدقناك - هو أن الولد سمع عن الموت وعن ذهاب والده إلى العزاء فتفوه بتلك الكلمات الغبية ، أما أن تحاول إقناعنا بغير هذا فهو مالا نقبله منك .

والكاتب يقول نفس الشيء .. ومن أجل هذا فهو يعتذر .. بل إنه يؤكد أن هذه الجملة التى تفوه بها الغبى قد ضايقته كثيرا وأزعجته .. وكان يريد أن يمضى فى بحثه أو تسجيله للأحداث دون أن يذكر هذه الجملة لعدم أهميتها على الإطلاق لولا أنه راجع نفسه ووجد أن ليس من حقه أن يحذف شيئا وهو يعلن أن كل ما يعنيه هو أن يسجل ماحدث بدقة دون أن يتورط فى أى حكم .. وما حدث هو أن الغبى قال «بابا مات» وبعد عشرة أيام مات بابا ..

الفصل السادس

لا أحد يعرف على وجه الدقة الصلة بين الغباء والموت وإن كنا نتحول أمام الموت إلى أغبياء على نحو ما خاصة عندما تتبلد مشاعرنا وتقف قدرتنا على التفكير ونحن نسمع الخبر.. ولكننا تعودنا أن نتخلص من حالة الغباء هذه ونتخلص منها بسرعة.. فنأتي بحركة أو نطلق صيحة ونورط أنفسنا في انفعالات متلاحقة كالدهشة والحزن والابتهال الى الله والترحم وخبط الكف بالكف إلى غير ذلك من الوسائل أو الانفعالات التى ابتكرها الأذكياء ليتخلصوا من لحظة الغباء التى تنتابهم فى هذه المناسبة.. ومن أنجح الانفعالات التى ابتكرتها الانسانية للتخلص من الغباء الذى يصحبنا أمام الموت.. هو البكاء. هو انفعال سهل عندما يكون الميت عزيزا لدينا أو لنا به صلة تقتضى ظهور أسمائنا فى السطور الأولى من النعى ..

والبكاء مفيد فى هذه الحالة ليس للتخلص من الغباء فحسب بل لتخفيف احتمالات ضغط الدم ..

أما تجربة التمسك بحالة الغباء فى مواجهة الموت فيبدو أنها لا تجد من يرحب بها بين الاذكياء وهى تجربة صغيرة نادرة الحدوث فالغباء أمام الموت أشبه بالموت أمام الموت.. فالموت يحول الحياة إلى جسد

متبلد لا حياة فيه .. جسد كان ينبض بالانفعالات وتجتاحه المشاعر ثم لم يبق انفعال ولا شعور ويبقى الجسد.. والغبى هو الآخر جسد متبلد إلى حد كبير ..فالغبى مع الميت مثل المنضدة إلى جوار المقعد أو لوح الخشب على الجدار أو الحجر تحت رأس الميت كلاهما بلا انفعال ولا شعور ومع ذلك نحن نرهب الجسد الميت وقد نحيطه بالقداسة ونشعر أمامه بالرهبة ولكننا لا نفعل هذا بالنسبة للغبى ..وحتى بالنسبة للجماد كالمنضدة أو المقعد أو لوح الخشب قد نتبين فى هذه الاشياء نواحى جميلة تدعو للتأمل والاعجاب ولا نفعل هذا بالنسبة للغبى ..

غير أن هذه الصلة بين الغبى والميت قد تكون إحدى وسائلنا التى لم نطرقها بعد لمواجهة الموت واكتشافه لأن الغباء صمود أمام الموت ومواجهة للموت بالموت وهذا مالم ينتبه اليه احد من الاذكياء. فقدت الانسانية عمرها الانسانى وهى تفر من لحظة الغباء أمام الموت بانفعالات مبتكرة تؤدى دائما إلى الهروب من الموت وعدم مواجهته وبالتالى عدم اكتشافه وهذا هو ما يدفع الكاتب الى بذل جهود أكبر لأنه يخشى لو فشل الغباء فى التعرف على الموت فربما استسلمنا لنزوات الموت ..

وعندما جاء الطبيب ليكشف على ابراهيم افندى كانت نعيمة قد كفت مؤقتا عن الصراخ ولطم الوجه ولقد سبق الطبيب فى الحجرة بعض الجارات وخادمات وصبى الكواء الذى اندس بينهم وكان قد جاء ببعض الملابس وفضل الانتظار ليتفرج على ما يحدث وليأخذ نقوده إذا واتته الفرصة ..

ووضع الطبيب سماعته على صدر الجسد ثم وضع اذنيه وجس اليد

وفتح جفنى العينين وقلبهما ولمس بياض العين بأظفره ثم بدا وكأنه يتحسس جبينه وكان رأسه مطرقا ونعيمة تتبع حركاته ثم سألت بصوت مفعم بالنحيب . ولما قال لها الطبيب ماقاله اتسعت عيناها وظلت صامتة لبرهة وكانت برهة غباء ثم صرخت وأمسكت بتلابيب الطبيب فلما دفعها ألقت بنفسها على الجسد تستصرخه وتحثه على النهوض ..

وقبل أن يغادرهم الطبيب اضطر الى أن يتلفت حوله وكان فى موقف صبى الكواء يتحين الفرصة ليطلب اجره وعندئذ وقعت عيناه على الغبى وكان يقف فى الحجرة والتقت نظرات الطبيب بنظرات الغبى ولأمر ما انسحب الطبيب . وعلا صراخ النسوة وهجمن على الحجرة والتففن حول الجسد وقد تملكتهن حيوية هائلة ، فجذبن نعيمة الى خارج الحجرة واجتمعن فى صالة البيت وبدأن فيما يشبه الرقص يرتفعن وينخفضن مع حركات بالأيدى وهى تهبط على الصدغ أو تشد الشعر . أما الغبى فقد ظل وحده فى الغرفة المغلقة مع الجسد وكان كل شىء فى الحجرة فى مكانه ، وكان الضوء قليلا إذ كانت النافذة مغلقة والجسد ممدودا على السرير. ولا يستطيع الكاتب أن يحدد بألفاظ الاذكياء ماكان يجول برأس الغبى فى هذه اللحظات . ولكنه يستطيع من ناحية أخرى أن يقدم تسجيلا أمينا – وبكلمات الاذكياء ولغتهم – للصور التى التقطتها عينا الغبى فبعد أن وقعت عيناه على رأس الجسد امتد بصره إلى الجسد نفسه وكان مغطى بملاءة بيضاء وبرزت القدمان فى نهاية الملاءة وكان السرير له أعمدة نحاسية ، من أعلاها كور صفراء . ورغم قلة الضوء كانت صورة وجه الغبى تنعكس بوضوح على العامود النحاسى القريب منه. وكان وجهه بيضاويا وصغيرا وأنفه مفلطحا وعيناه صغيرتين، ولما

فتح فمه انفتح فم الوجه فى العامود النحاسى ولما أغلق فمه اغلق الفم النحاسى ولما مط شفتيه مط الوجه النحاسى شفتيه فاقترب الغبى بأنفه من العامود حتى التصق طرف الأنف بالنحاس البارد ، ثم لمس الجسد بجبهته ثم تحسسه بيديه .

فى هذه الاثناء كان الدبيب يشتد والصرخات تشتد ونظر الغبى بعين واحدة إلى قدم الجسد الميت على السرير وكانت عينه الأخرى ملتصقة بالعمود النحاسى. ومد الغبى يده ولمس بأصبعه بطن قدم الجسد ومر بأصبعه على مساحة القدم ، ثم وضع ظفره على خط فى ثنيات الجلد وجرى باظفره مع الخط وأخيرا وضع اصبعه بين اصبعى القدم وهكذا بدأ يتنقل بين اصبعين اصبعين . وكانت الملاءة بيضاء، وياقة قميص الغبى بيضاء ، وسقف الحجرة ابيض، وكان مازال مكانه والشيزلونج مكانه والدولاب مكانه والمشجب مكانه والجسد مكانه ومن وسط السقف يتدلى حبل فى نهايته مصباح يتأرجح . وكان نشاط النسوة يتزايد والبيت يهتز وأصوات تصرخ من قريب ، وأصوت تصرخ من بعيد. فلما جرى الغبى حتى وصل الى وجه الجسد توقف ونظر الى العينين المغمضتين واغمض عينيه فسمع ضجة تملأ أذنيه وفتح عينيه فرأى عينى الجسد مغمضتين وامسك بالملاءة البيضاء وجذبها فلم تنجذب وهنا اصطدمت قدمه بحذاء أبيه تحت السرير فانحنى وجلس بجوار الحذاء وامسك برباطه ثم رفعه وقربه من وجهه ولم تدخل رأسه فى الحذاء فقلبه فرأى التراب فى النعل ورفع الحذاء الآخر وفعل به نفس الشيء ، وكان تحت السرير سلة بها اوراق ، وملابس وعلى الأرض تراب جرى بأصبعه فوقه ثم ادخل ظفره بين شقوق الخشب وظل هكذا برهة حتى مد يده وأخرج من السلة حزمة وشرع يمسح التراب وكان قد اختفى تماما تحت

السرير عندما فتح الباب وظهر له ساقان تتجهان ناحية السرير وخلفهما سيقان كثيرة وكان الساقان اللتان دخلتا أولا، في نهايتهما «شبشب» رمادى والسيقان الأخرى فى نهايتها احذية . واخذ الشبشب يقترب والأحذية تندفع وراءه. والشبشب يرتفع الى أعلى السرير ثم يهبط ثم تحرك الشبشب وحوله الأحذية فى اتجاه الباب وكان الشبشب يترنح . وأطل برأسه من تحت السرير فرأى الباب يغلق ووقف واطل على الجسد وصعد فوق السرير متشبثا بالملاءة فلما وصل الى الجسد رفع الملاءة واندس تحتها وتمدد بحذاء الجسد واغمض عينيه ، فكان الصراخ يزداد وجدران البيت تهتز والملاءة تعكس خلفها ضوءا معتما ولكنه ابيض وقال الغبى بصوت مسموع (ماما عندها ضيوف) وسكت ولم يسمع صوتا غير صوته فقال (ماما كانت فى المطبخ) وسكت ولم يسمع صوتا غير صوته فقال (الحذاء تحت السرير) ولم يقل الجسد شيئا رغم أن الحديث عن الحذاء يتعلق به.. وهنا أمسك الغبى بذارع الجسد ثم تحسس بيده الوجه وكان الشعر نابتا وظل يتحسسه برهة ثم أمسك بالملاءة ومسح بها الوجه وظل الشعر نابتا فتحسس وجهه هو وهبط من السرير واقترب من الباب المغلق ثم استدار واتجه إلى النافذة المغلقة ووقف ينظر إلى خشب النافذة وزجاجها . وعندئذ فتح الباب وتعالت صيحات وتقدمت اجساد امسكت بالغبى واخرجته من الحجرة واخترقت به الصالة . كانت أمه تضرب بكفيها على وجهها وهى جالسة على الأرض ممددة الساقين ونسوة حولها جالسات أو يقفن وايد تمسك بالغبى وتجذبه واجساد تنحنى فوقه وتوقف حركته أو تضع يدها تحت ذقنه أو ترفعه أو تجذبه الى الأرض حتى وصل إلى حجرة فى نهاية البيت وخادمة تبكى وكانت تردد (أبوك مات) ومنديلها الأحمر قد انحسر عن رأسها وتهدل شعرها

وصرخت الخادمة وهى تهز الغبى من كتفيه (ابكِ يا ولد أبوك مات) ..
فضاقت عيناه وانكمش انفه وضاق صدره وابتلت عيناه وارتطم كفا
الخادمة بوجهها وكان خلفها مقعد خشبى له ظهر مستدير والخادمة
جالسة على الأرض وهو جالس بجوارها وفى ركن الحجرة مكتب عليه
كراسات (حساب) و (إملاء) و (أشياء) وتحت المكتب كرة خضراء لا
تتدحرج وباب شرفة الحجرة مفتوح ونافذة يطل منها ولدان وبنت وسماء
زرقاء وتحت النافذة نقوش، وخرجت الخادمة من الحجرة، وكان صرصار
يجرى على الأرض ويقف حتى وصل إلى الكرة الخضراء التى لا
تتدحرج فوقف ثم جرى ملتفا حولها واختفى وقال الغبى: اصطاد رجل
سبع تفاحات وأكل ثلاث تفاحات فكم الباقى.. ثلاثة (ياأبله) ، وكان البلل
ينهمر من عينيه والمخاط يغطى شفته العليا ويتسلل الى فمه ولسانه
وحذاؤه أسود، وجوربه أبيض، وجاءت الخادمة فى يدها صحن ورغيف
وضعتهما فى حجرها . بالصحن بامية وارز. وقالت للغبى (كل) ودست
يدها فى جيبه اخرجت منديلا ومسحت انفه وفمه . ودست ملعقة مليئة
فى فمه ومضغ وطلب ماء فوضعت الخادمة الصحن أمامه وقالت له (كل)
وخرجت فلم يأكل، كان الولدان والبنت فى النافذة وتحت النافذة نقوش
والسماء زرقاء والكرة لا تتدحرج وجاءت نعيمة ووراءها الخادمة – وجه
الأم أحمر، وعيناها حمراوان وانحنت فوق الغبى فدست ثدييها فى
شعره وبطنها فى خده وذراعها حول ظهره وقالت (كل ياحبيبى) ومدت
الخادمة يدها بالملعقة المليئة فى فمه ومضغ وبكت الأم ، ضاقت عيناها
وانكمشت أنفها فضاقت عيناه وانكمش انفه وضاق صدره وجرى
الصرصار قادما من خلف الكرة التى لا تتدحرج وخرجت نعيمة..

عندما فتح الغبى عينيه كانت العتمة تملأ الحجرة وفوق رأسه جسد طويل على رأسه عمامة بيضاء وتحت أنفه شارب ومن خلفه امرأتان وجههما لونه ازرق وثيابهما سوداء تنفذ منها رائحة وخلف الجميع الأم تصرخ والجسد الطويل يقول (ابن اخى) والمرأتان تختطفان الغبى وتقولان (لن نتركه لتقتلوه) والأم تصرخ وتمد ذراعيها فترتطم بجسدى المرأتين واستيقظ الغبى وكانت إحدى المرأتين تمسك بذراعه ثم تمسك بفخذيه ثم تدس أصابعها فى رأسه وتقول (أنت سليم يابنى) ويجيب الطويل ذو الشارب تحت أنفه يقول (سنأخذه معنا) والأم تلطم وجهها ثم صرخت المرأتان (أخويا) وصرخ الجسد الطويل مثلهما وحملوا الغبى واخترقوا به الصالة، كانت القفزات مازالت مستمرة ولكنها توقفت الآن وتشابكت الأيدى وتلاطمت الأجساد والجسد الطويل يشق طريقه بين النسوة اللائى وقفن بينه وبين باب حجرة الجسد فلما استطاع أن يدخل ومعه المرأتان صاحبتا الوجه الأزرق، رأى الغبى إحدى المرأتين تصعد السرير وتزيح الملاءة وتعرى صدر الجسد وتشد شعرات الصدر ثم تشد شعرات الذقن، وقالت المرأة (اللحم يخرج مع الشعر) وقالت الأخرى (قتلوك) وقال الجسد الطويل الواقف للجسد الممدود (سموك) وقالت المرأة الأولى (وجهه ازرق) وهنا التفتت الثانية الى نعمية وامسكت بها وهى تصيح (قتلتِ اخى) وقال الجسد الطويل (سنأخذه معنا) وأمسك بالجسد الممدود فوق السرير يجذبه وكانت النساء اللاتى يقفزن قد دخلن الحجرة وكلهن الآن فوق السرير وكل واحدة تجذب الجسد ناحيتها وكان الغبى واقفا بجوار الدولاب والدولاب مازال مكانه والسقف الأبيض مكانه والشيزلونج مكانه وقالت نعيمة (حرام عليكم) فقالت إحدى المرأتين (سرقتم اخى.. سممتم أخى) وقالت الأخرى (اين ماله.. أين ذهبه.. أين

خزائنه) وقال الجسد الطويل (سندفنه فى ترابنا) ثم تركوا الجسد على السرير وخرجوا جميعا من الحجرة وأمسكت نعيمة بالغبى وذهبت به الى الحجرة البعيدة ومعها نسوة وارقدوا الغبى على الأرض. ثم جذبوه فقام وخرجوا به وهبطوا سلما وادخلوه حجرة واغلقوا الباب وبين آن وآخر يفتح الباب وتطل منه رءوس وتلقى كلمات .

وفى الليل كان الأصوات قد انتظمت . صوت واحد ثم تتلوه جميع الأصوات ثم صوت واحد وتتلوه جميع الأصوات وهكذا . ولو استطاع الغبى أن يعبر عن شىء غامض طاف برأسه - ونادرا ما يحدث - لقال إن الضجة بالنهار كانت أشبه بضجة الأولاد فى حوش روضة الاطفال وإن الضجة بالليل أشبه بضجة الأولاد فى الفصل . اذ يصيح المدرس ثم يصيح الاطفال ثم يصيح المدرس ويتلوه صياح الاطفال ولكن الغبى نسى هذا الشىء ومع ذلك لم ينم وفتح الباب ودخلت امه واخذته وصعدت به فرأى الجسد الطويل صاحب الشارب والمرأتين الزرقاوين يجلسان فى هدوء وأمسك به الجسد الطويل وقبله وقال له (انت رجل من ظهر رجل وكلنا رجال لاتنس أباك وأطع أمك) وقالت إحدى الزرقاوين لنعيمة (ليس له أب وستكونين خادمته) فقالت نعيمة (أنا خادمته) وفى النهار حملوا الجسد الممدود على السرير ووضعوه فى صندوق خشبى . أما باقى الأشياء من الحجرة فلم يحملوها وظلت مكانها حتى الملاءة البيضاء تركوها وغطوا الجسد بقماش آخر واخفوه داخل الصندوق .

وعادت النسوة الى القفز والتمايل والدبيب والتلويح بالأيدى والصراخ وهبطوا وراء الصندوق الذى يحمله رجلان وكانت نعيمة راقدة ويرشونها بالماء فتنهض وتجرى إلى الشباك وتقع ويرشونها بالماء ويجذبونها إلى الشباك وفى الشارع اجتمع كثيرون ومشوا خلف الصندوق .

والكاتب لا يجد مبررا للاستمرار في سرد وتسجيل هذه الوقائع بالنسبة لموت إبراهيم أفندى . فما سبق ذكره يكفى للتدليل على الأقل أن موقف الغبى فى مواجهة الموت كان يختلف عن موقف بقية الأذكياء . لقد استقر الغبى فى البيت مع أمه ، بعد أن انتهى ذلك النزاع الوقتى بين نعيمة وأقارب المرحوم الذين عدلوا عن فكرة أخذ الغبى معهم إلى القرية، ولعلهم لم يفكروا أبدا فى غير الميراث الذى يشمل ثمانية قراريط وحصة فى دار . وكان الجسد العريض وهو عم الغبى - كما عرف الأذكياء - يزرع هذه القراريط ويريد الاحتفاظ بها لنفسه . وقد حقق ما يريد .. كذلك كانت المرأتان وهما شقيقتا المرحوم وقد لطختا وجهيهما (بالنيلة الزرقاء) تريدان الاحتفاظ بحصة الدار خشية أن تهددهما نعيمة وقد أصبحت وارثة وكان لهما ما تبغيان . وهكذا بقى الغبى مع أمه التى اكتفت بالمعاش .

الفصل السابع

وبدأت الأم عملها الشاق فى تربية الغبى وبطريقتها الخاصة .. التى كانت مزيجا من طريقة الأب قبل أن يموت وطريقتها هى ..

ونحن نعلم أن الأب كان يعامل الغبى وفى رأسه خيالات المستقبل وطموحه .. وكان هذا الطموح يرتبط بوضوح بكل ما فشل الأب فى تحقيقه لنفسه فى الماضى ، ومعنى هذا أن الأب كان يعامل الغبى ليفرض عليه صورة من الحياة ، وهى استمرار لصورة قديمة عشقها الأب وتمنى لو تكون عليها حياته .

فاذا حاولنا أن نفكر وقلنا إن الأب كان له بدوره أب ، هو جد الغبى، وأن هذا الجد كانت لديه صورة عن الحياة يعشقها وحاول أن يفرضها على ابنه ، الذى هو أب الغبى ، وإذا تسلسلنا مع الأجداد والصور التى عشقوها وتمنوها لحياتهم ثم حاولوا فرضها على أبنائهم لانتهينا إلى وجود حلقات لا تنتهى من الصور تطورت أبا عن جد ، وحلقات لا تنتهى من طرق الحياة شارك فى تعبيدها الآباء والأجداد ليسير فيها الأبناء، أحيانا يقبل الأبناء الصورة المعدة لهم ويسلكون الطريق التى عبدها الآباء لهم وأحيانا يرفضون ويثورون فيتخبطون حتى يجدوا لهم طريقا أو يأتى من يفرض عليهم طريقا يسيرون فيه .. وبالنسبة للغبى كانت

المشكلة هي كيف نضطره للسير في الطريق الذى رسمه له المرحوم والده ، نقاوم عناده وعدم رغبته او بتعبير آخر عدم قدرته على الاقتناع أو الفهم لضرورة السير في طريق لمواصلة الحياة .

ومن ناحية أخرى كانت الام تعامل الغبى بأسلوبها الخاص ـ فكانت تعامله وكأنه جزء من جسدها تحبه لذاته وتتعامل معه لمجرد وجوده وكما أن بعض أجزاء الجسد ليس لها فائدة عملية وتنحصر فائدتها في شكلها الجمالي ، كذلك نستطيع أن نقول إن الأم كانت على استعداد لأن تقبل الغبى وتعترف به لأن وجوده شىء جميل فى حد ذاته، وسواء كان من ورائه نفع مادى أم لا، وسواء كان له طريق فى الحياة يسير فيه، أو ليس له طريق وسواء كان له مستقبل وطموح أو ليس له مستقبل أو طموح.. وبمعنى آخر سواء كان الغبى فالحا أو صعلوكا .. سيصبح وكيلا للوزارة، أو ساعيا يقف أمام باب وكيل الوزارة، ففى كلتا الحالتين هى لن تفرط فيه ، ولن تتنكر له والمهم هو أنه موجود.. وهذا فى حد ذاته مبرر كاف لاستمرار حبها ورعايتها له ..

غير أن الام اضطرت بعد وفاة زوجها الى المزج بين الأسلوبين وقد افتقدت الأب وشعرت بحاجتها اليه، وكان لابد أن تستعيد وجوده على نحو ما، ومن الطبيعى أن تحاول استعادته عن طريق ابنه (الغبى) فهى تفكر فيه الآن كبديل للذى رحل، وتنتظر منه أن يكون رجلا يخرج من البيت ويعمل ويكسب نقودا ويكون له مركز وغير ذلك من الاشياء التى تريد نعيمة أن تحيط بها نفسها لتشعر بشىء من الطمأنينة والاستقرار..

والكاتب لا يريد أن يغرق نفسه فى تتبع تفاصيل مجهودات الأم فى صناعة الرجل الغبى. فهى تكرار لما سبق أن فعلته الأم مع الغبى

الرضيع وهى تعلمه منذ ولادته الرضاعة والبكاء والابتسام والمشى والمضغ، فالمجهود واحد، وهى تعلمه أن يحفظ دروسه وتعلمه أن يسأل إذا لم يفهم وبما أن الغبى كان لا يفهم اطلاقا فقد أصبح يسأل حتى يحفظ الاجابة عن ظهر قلب..

ومن الخطر إعطاء أهمية لهذه الجهود أكثر مما تستحق لأننا نلاحظ أن كل مايتعلمه الغبى هو مجرد قشرة تغطيه دون أن تغير شيئا من أعماقه، إذ ما الفارق الكبير أو الخطير بين إنسان متجرد من ملابسه وانسان يرتدى ملابس أنيقة مثلا . ما الفارق بين أرسطو عريانا وارسطو بملابسه إنه مازال أرسطو إلا إذا تصورنا أن مقياس الشخص هو فى مظهره أو ملابسه. وصحيح أن كثيرا من الاذكياء يضعون مثل هذه المقاييس الظاهرية موضع اعتبارهم ، إلا أن الكاتب يرفض هذا الاتجاه إلا فى حالة أن يكون صاحب الملابس قد اختارها بذوقه الخاص، ولم يفرضها عليه أحد، فهنا قد تكون الملابس دليلا على شىء ما من أعماق مرتديها ، ولكن ماهى حدود هذا الشىء.. لاشك أنها حدود تافهة، وإلا كان أعظم الناس أناقة هم أعظم الناس عقلا وخلقا .

أما عن الغبى فمعلوماته كانت مفروضة عليه فهو لم يخترها بل هو يعلقها فى رأسه كما نعلق الملابس على المشجب.. أو نرغم رجلا على أن يلبس ملابس امرأة حتى يذعن ويتعود عليها . والافكار التى تعلمها الغبى هى كلمات يتشدق بها، والسلوك الذى يقدم عليه هو سلوك يصطنعه .. إنه ببغاء ..

ومع ذلك فالكاتب يريد أن ينبه إلى أن الفارق بين الغبى ، والذكى من ناحية الاستسلام للمعلومات ليس كبيرا .. فحتى الأذكياء يتعلمون أشياء

يفرضها عليهم الآباء والمدرسون . والغبى يعلق هذه المعلومات المفروضة فى رأسه ولا يتأثر بها ، أما الذكى أو الذى نقول نحن عنه إنه ذكى فهو الذى يتأثر فى أعماقه بما يفرضه عليه الآخرون .. وعندئذ نقول إنه يفهم وإنه ذكى . المسألة محصورة إذن فى مدى التأثر بالشىء المفروض عليك كن ذكيا فتأثر . وكن غبيا فلا تتأثر .. وبما أن الذين يتأثرون هم الغالبية لذلك أصبحوا من فئة واحدة هى فئة الأذكياء وبما أن الذين لا يتأثرون هم الأقلية أصبحوا بدورهم فئة أخرى تنبذها الأغلبية وتصفها بالغباء . والأذكياء عندما يتأثرون وتبدو عليهم علامات الفهم يصبحون قادرين على ابتكار أفكار من عندهم . أما الأغبياء فعندما لا يتأثرون فعندئذ يصبحون قادرين على الاحتفاظ بهذا الشىء الغامض داخل نفوسهم الذى يرفض التأثر والفهم . وليس هناك دليل واحد على أن هذا الشىء الغامض العنيد المختبىء داخل نفوسهم هو شىء فاسد أو سيِّئ كل مافى الأمر أنه مجهول .. وهذا ما قاله العرب عن الغباء فقاموس المحيط وأسرار البلاغة يؤكدان أن الغباء هو الشىء المختبىء أو الخفى الذى بيننا وبينه حجاب .

وهذا ما يجعل الكاتب يؤكد أن جهود نعيمة فى تعليم ابنها ، وتربيته، رغم أنها جهود عظيمة وجديرة بالترحيب فإنها من ناحية أخرى جهود لتحطيم شىء مجهول ربما كان أعظم بكثير من كل ما تريد أن يستسلم له الغبى ويفهمه . والمبالغة فى تقدير جهود نعيمة سوف تؤدى بنا إلى الترحيب بالمظاهر والشكليات السطحية . والكاتب يذكر الأذكياء بأنهم يتخذون نفس موقفه فى كلامهم اليومى عندما يحكمون على تلاميذ المدارس أو طلبة الجامعات بأنهم يدخلون مدارسهم وجامعاتهم ويخرجون

منها وقد حفظوا دون أن يتعلموا فى الحقيقة شيئا أو عندما يؤكدون أن العلم ليس بالشهادات المزركشة ، وأن الثقافة ليست بحفظ الكتب وترديد كلمات مأثورة .

كذلك يرفض الكاتب أن يتورط فى الإشادة بأمومة نعيمة فى تربية الغبى فحتى بالنسبة للأمومة وهو موقف عظيم نجد أن عظمته تلتصق بنعيمة لا بالغبى . ولو فكرنا فى أن نعيمة كان من حقها أن تيأس بعد موت إبراهيم أفندى وتتزوج رجلا آخر لتعيد التفاؤل إلى حياتها لما كان لاحد أن يعترض . حتى الشرع لا يعترض فهو يبيح للأرملة الزواج .. ولكن نعيمة اتخذت موقف الأم وقررت أن تكرس حياتها للغبى وقدرت أن هذا هو الموقف والاختيار الطبيعيان لها . وأنها لاترضى بغيرهما وهذا هو المهم ، لقد اختارت لنفسها .. أما أن تقول إنها ضحت من أجل ابنها ، ورفضت الزواج فهذا تضليل لأنها لن تضحى بالزواج إلا اذا كانت راغبة فيه وتريد اختياره وعندئذ تكون التضحية ومثل هذه التضحية هى فى حقيقتها نقمة على الابن . لأنها لن تعيش معه كأم ولكن ستعيش معه كزوجة ضحت بالزواج والابن يحتاج إلى أم لا إلى زوجة مضحية . فضلا عن أن تضحية نعيمة ستجعلها تطالب ابنها بأن يدفع الثمن وبذلك تتحول من أم طبيعية إلى أم بالإيجار وفى حالات أخرى كان من المحتمل أن ترفض نعيمة الزواج من رجل آخر لخوفها من كلام الناس وكلام أهل زوجها بالذات. وهذا موقف سطحى واضراره أكثر من نفعه . لأنها ستضطهد ابنها الغبى بعقدها التى تتمثل فى مخاوفها فضلا عن احتمال أنها كانت تتخذ عشيقا فى السر .

ومن حسن الحظ أن نعيمة لم تقدم على شىء من هذا لأن موقفها كان طبيعيا أى أنها رأت أن من الطبيعى أنت تختار وظيفة الأم.

وإذا جاز لأحد أن يعترض على الكاتب قائلا إن اختيار وظيفة الأم هو الاختيار الصعب فالرد على ذلك هو أنه ليس هناك دليل على أن هذا الاختيار هو الصعب أو السهل. إذ كان من المحتمل دائما أن تتزوج نعمية من رجل آخر ويموت بعد شهر أو سنة وكان من المحتمل دائما أن تتزوج من رجل آخر فيقسو عليها ويحول حياتها إلى جحيم والاحتمالات هنا لا تنتهى بل إنها وهى تختار الغبى فهى تختار على الأغلب أضمن الاحتمالات ..

وعلى أية حال فالمسألة لاتتصل بعواقب الاختيار وانما هى تتصل أساسا باختيار الموقف ذاته وبكل بساطة اختارت نعيمة موقف الأم لا أكثر ولا أقل وبلا مدح أو ذم وبلا فرح أو ندم، وهذا هو كل ما فى الأمر .

ولقد تصورت نعيمة فى لحظة من حياتها أن كل شىء قد انتهى وراودتها فكرة حرق نفسها أو إلقاء جسدها من النافذة ولكنها كانت مجرد خواطر انتهت بسرعة إلى العناية بالغبى ورعايته .

واطمأن أقارب المرحوم الى أن نعمية لن تنازعهم الميراث فرحبوا بها وأكثروا من التردد عليها وكانوا يفعلون هذا نادرا فى حياة ابراهيم افندى لأنه كان قادرا على مواجهتهم بضيقه بهم وطردهم أحيانا . أما الآن فكلما جاء واحد منهم إلى القاهرة فى زيارة للسيدة أو الحسين أو فى عملية شراء أو لقضاء مصلحة فى وزارة. فما أسهل أن يلجأ الى بيت نعيمة ومعه سلة فيها فطير مشلتت وكيزان أذرة مشوية أو بلح أو تين شوكى أوزبد يتقاضى ثمنه ثم يأكل وينام مطمئن البال ومشاركا نعيمة فى الترحم على المرحوم ومظهرا اهتمامه بالغبى . وكان العم

بالذات يكثر من تردده وهو الذى كان يراه الغبى يوم جنازة والده على انه جسد طويل له شارب تحت أنفه وقد اتخذ هذا الجسد الآن اسما يحفظه الغبى (عمى الشيخ فرحات) ..

ورغم أن الغبى كان قد وصل إلى بداية سن المراهقة إلا إنه كان لايتورع عن جذب شارب (عمى الشيخ فرحات) وكان الرجل يقابل هذا بسرور وابتسام رغم تحذيرات الأم للغبى، ولقد كان لهذه العملية أثر حيوى فى حياة كل من نعيمة والشيخ فرحات فلقد كان الشيخ فرحات يترك الغبى يفعل به مايشاء ، وفى ظنه أن هذا دليل على حبه للغبى يظهره أمام نعمية لعلها ترضى به زوجة ثالثة له أما نعيمة فقد فسرت هجوم الغبى على شارب عمه بأنه رفض لهذا الزواج .

ومن المؤكد أن الغبى شاهد أناسا كثيرين لهم شوارب تحت أنوفهم مثل مرعى افندى مدرس الجغرفيا ومع ذلك لم يحاول الغبى يوما أن يقدم على جذب شارب مرعى افندى لأنه لم يقترب منه أبدا بنفس الدرجة التى أقترب بها من وجه (عمى الشيخ فرحات) ومن المحتمل جدا أن مرعى أفندى لو كان قرب وجهه من الغبى كما يفعل (عمى الشيخ فرحات) وهو يحتضنه ويقبله لحدث له ، أى لمرعى أفندى - نفس الشيء، لذلك لانستطيع أن نقرر أن الغبى قد فكر وانه أدرك بشيء - ولو قليل - من الفهم أن هناك فارقا بين معاملة الاقارب ومعاملة الغرباء .. فمثل هذه الكلمات (أقارب) و (غرباء) وغيرها مجردات من الصعب فهمها أو حفظها فى رأس الغبى، إذ ليس لهما صور مادية من الممكن تخيلها فهو يحفظ (عمى الشيخ فرحات) لأن له شكلا ملموسا وشاربا من الممكن جذبه ونتف شعيراته، أما (الاقارب) عموما فكلمة ليس لها شكل . وليس لها شارب من الممكن نتف شعيراته مثلا ..

على أن مرعى افندى قد تعرض لحادث من نوع آخر مع الغبى . فقد حدث أن كان يشرح للتلاميذ الفرق بين أوروبا وآسيا كقارتين منفصلتين والفرق بينهما كقارة واحدة تربطها أرض واحدة ويطلق عليها اسم (اوراسيا) ولقد ضج التلاميذ فجأة عند سماع اسم (اوراسيا) لأن واحدا منهم يجلس فى آخر الفصل قال (قراصيا) أو (أراسيا) وهو يعنى الحلو الذى يأكله. واضطر التلاميذ الى الضحك وكثرت التعليقات وهنا اهتز شارب مرعى افندى وأطلق صيحة مفزعة وقال للتلاميذ انهم (غجر) وأن آباءهم (غجر) ..

وساد الصمت فى الفصل وكان الغبى هو النشاز اذ نهض فى أدب وسأل بصوت هادىء له مظهر برىء عما يعنيه مرعى افندى بأنهم (غجر) وأن آباءهم (غجر) ..

ولم يتمالك مرعى افندى أعصابه. فانفجر فى الغبى شاتما وقال إنه لا يسمح لتلميذ بهيم مثله أن يسخر من كلامه. وهنا سأل الغبى بهدوء وأدب جم.. ماالذى يعنيه مرعى افندى بكلمة (بهيم) ..

فلما سأله مرعى افندى وقد بلغ ذروة انفعاله وهياجه ما غرضه من هذه الأسئلة الوقحة قال الغبى مجيبا وبنفس الهدوء والأدب الشديدين «إنه يسأل لأنه لم يفهم. ثم قال ببساطة متناهية .. إنه تعود ألا يخجل إذا لم يفهم وأن يسأل حتى يفهم » .

وكان مرعى افندى ينصت فيما يشبه الذهول وهو يشعر أن شيئا ما فى رأسه يكاد ينفجر. والتلاميذ ينصتون والضحك المكبوت يكاد ينفجر من صدورهم لولا أن الموقف كان ممتعا للغاية فحبسوا أنفاسهم..

واستمر الغبى بصوته الرتيب يقول: إنه إذا لم يفهم فهو يحفظ مايسمعه وان هذا ماقالته أمه له لأنه لا يريد أن يخطىء فإذا كان أبوه اسمه (غجر) فهو يريد أن يحفظ هذا الاسم ليكتبه فى كراسته ويذاكره وليكتبه فى أوراق الامتحان لينجح فى الامتحان ويأخذ الشهادة ..

وكما نفهم.. نحن الأذكياء، كان الغبى يردد الكلمات التى سمعها وحفظها من أمه ويرددها ببراعة وقد حفظها تماما .

وانتهى هذا الجدل بين ماردده الغبى من كلمات منقولة عن أمه وبين مايردده مرعى افندى من كلمات عصبية جامحة بأن هجم مرعى افندى على الغبى وجذبه وطرده خارج الفصل .

فوقف الغبى مكانه حتى رآه الناظر أثناء مروره بالفصول وسأله (لماذا هو خارج الفصل) أجاب بأن مرعى أفندى هو الذى أخرجه. ثم أجاب على أسئلة الناظر .. بأن مرعى افندى أخرجه بعد أن قال إن:أباه غجرى .

وقد سأل الناظر مرعى افندى بعد ذلك فى أمر طرد الغبى فارتج على المدرس، واعترف للناظر بأمانة أنه فقد أعصابه وقال ماقاله فى لحظة غضب وأن شيئا فى ذلك التلميذ يجعله يشك فى أنه مشاغب وأنه كان غير جاد فى اسئلته .

أما التلاميذ فقد احترموا الغبى وقالوا إنه يحترم نفسه، وإنه شجاع وإنه يخفى خلف هدوئه روحا عالية وإنه على حق فى دفاعه عن والده المتوفى.. وشكر له تلاميذ آخرون توفى آباؤهم ولم يجرؤا على الدفاع عنهم .

وفى آخر العام الدراسىّ وفى حصة الوداع فوجىء التلاميذ بمرعى افندى يعلن لهم انه مازال يذكر ذلك الحادث الذى وقع بينه وبين الغبى وانه ظل يراقب الغبى بعد ذلك ليعرف سر ثورته . وهل هى مجرد مشاغبة من تلميذ يحترف الشقاوة أم هى موقف رجل أبى شريف. وانه لاحظ أن الغبى لم يحدث شغبا طوال الحصص التالية على الحادث حتى نهاية العام. وانه كان يحفظ الجغرافيا عن ظهر قلب. لولا تسرعه الذى يوقعه فى الخطأ عند التطبيق وهذا يجعله يؤمن أن احتجاج الغبى كان احتجاج رجل. ولذلك فهو يعتذر له علنا وأمام الجميع ويعلن انه واثق أن مثله سيكتب له النجاح فى حياته لأن الحياة تحتاج إلى رجولة وصلابة فى الحق .

وسأل مرعى افندى الغبى عما إذا كان يريد أن يقول شيئا بعد أن سمع هذا الاعتذار. فنهض الغبى وقال إنه يريد أن يتعلم وأنه يذكر أنه كان يسأل ليتعلم .

وهنا بدا التأثر على مرعى افندى وقال إنه لم يسمع طوال عشرين عاما قضاها بين تلاميذ المدارس اجابة أحدثت وقعا فى نفسه مثل هذه الإجابة .

ورأى الغبى والتلاميذ مرعى افندى وهو يخرج منديله من جيبه ويجفف دموعه .

الفصل الثامن

وحدث ذات يوم أن جاء العم « الشيخ فرحات » وقال لنعيمة إنه سيأخذ الغبى معه إلى قرية أبيه لتراه عمته فقد جاءها فى المنام كهل يرتدى الملابس البيضاء وله لحية بيضاء ، وفى قدميه حذاء أبيض ، وفى يده اليمنى مسبحة بيضاء ، وقال لها الكهل ، أخرجى معى يانفيسة .. فقالت له : « الى أين نذهب ياسيدى الشيخ » فقال لها وهو يسبح فى فضاء الحجرة « نذهب لزيارة شقيقك ابراهيم » فقالت له « ولكن شقيقى مات » فضحك الكهل وقال لها « اخرجى » ، فخرجت معه وسبحت معه فى بركة وكان حولهما بط وأوز وعشب أخضر وفى قاع البركة طين ، وفجأة تخلى عنها الشيخ فقد اختفى ، وظهر مكانه الغبى ، وقال لها «تعالى ياعمتى نذهب لرؤية أبى » فقالت له « ولكنه مات » فضحك الغبى وقال باسما وهو يسبح طائرا فوق البركة « من قال إنه مات ، إنه هناك يسقى الزرع »

وصعدت نفيسة ربوة عالية ، فأشرفت على قرية بيضاء لها حدائق واسعة ، وكان هناك ثلاثة يجلسون القرفصاء ، ملابسهم سوداء ، ولا تدرى إذا كانوا نسوة أم رجالا . ثم انفتح أمامها طريق أخضر مشت فيه حتى سقطت فى هوة ، وقالت لنفسها إنها ماتت ، وإن الثلاثة الذين يجلسون القرفصاء سوف يبكون عليها .ولما استيقظت نفيسة من نومها ،

قررت أنها سوف تموت .ونادت على شقيقها فرحات وقالت له « اذهب الى مصر واحضر لى الغبى لأودعه ويودعنى . حتى إذا مت والتقيت بأبيه . وسألنى عن ابنه ، قلت له إنى أديت الواجب ، فقبلته واطمأن قلبى عليه ، وهأنذا أحضر إليك وبى نفحة من رائحته » .

ولم تستطيع نعيمة أن ترفض الطلب ، ولكنها كانت غير راضية ، أما الغبى فقد استمع الى الحلم وهو يرى الملابس البيضاء والبط والأوز والربوة العالية والثلاث الجالسات القرفصاء والهوة التى سقطت فيها نفيسة .

ولم يدرك أحد أنه يريد الذهاب إلى تلك الأشياء التى سمع عنها ، أو انه يتصور أنه ذهب مع عمه إلى تلك الاماكن التى جاء ذكرها فى الحلم . وعندما تركته أمه فى حجرة النوم لتأتى له بملابس نظيفة ، بدرت منه حركة كأنه يطير فى الهواء ، فقد شب على قدميه ورفع ذراعيه فلم يطر مع أنه أقدم على هذا التصرف كالواثق انه سيطير ، وهو الذى سمع أنه طار فعلا فوق البركة ورغم فشله فى المحاوله فقد ظل واثقا أنه طار أو أنه سوف يطير ، فلم يكن المهم بالنسبة له أنه يريد الطيران فى الهواء ، بل كان قد سمع أنه طار و ارتسم فى رأسه ما سمعه .

وكان القطار الذى يحمل الغبى إلى القرية قاعة صفراء مستطيلة، نوافذها مفتوحة ، يدخل منها التراب ويملأ العيون .والناس جالسون ، رجالا أو نساء ، طوالا أو قصارا ، آكلين ،أو متكلمين أو نائمين . وعمى « الشيخ فرحات » يرتدى عباءة سوداء ، وفى يده عصا ، وعلى رأسه عمامة بيضاء ، وفى رقبته خدش وأظافره غير مقصوصة وكانت أعمدة البرق تتوالى .. والاشجار تجرى والحقول تلتف ، والبيوت تظهر

وتختفى، وفى نهاية القاعة الصفراء المستطيلة ، طفلة تبكى وسأل الشيخ فرحات ابن أخيه إذا ما كان مسرورا بالرحلة ، فأجاب الغبى بعد برهة بأن الدنيا تطير ، فقال الشيخ فرحات إن القطار سريع فقال الغبى «نحن أيضا نطير » فابتسم الشيخ فرحات مسرورا وقال إن العمات وأولاد العم جميعهم ينتظرون .. وإن الإنسان يجب أن يسأل عن أهله ويعرفهم ولا يقطع الصلة بينه وبينهم فصمت الغبى ولم يرض العم عن هذا الصمت وصمم على أن يسمع كلاما من الغبى فى هذا الموضوع . وكان الغبى ينظر الى وجوه الجالسين ويستمع الى بكاء الطفلة ، ودقات القطار ، فلما ألح عليه العم قال مضطرا فيما يشبه السؤال « هل يذهب كل هؤلاء الناس الى القرية ويقابلون العمات وأولاد العم » فقال العم « لا، إنهم لا يذهبون » وبدا للعم أن الغبى لم يفهم ، أو لعله بدا له أن الغبى لم يقتنع بما سمعه ، إذ اضطر أن يشرح قائلا : « إن هؤلاء الركاب لهم أقارب آخرون يذهبون إليهم » وكان الغبى يحدق فى الخدش الذى فى رقبة عمه فأيقن العم أنه غير مهتم بما يسمعه فقال فى أسى إنه لاحظ عدم الاكتراث بالأهل عند ابن أخيه ، وهذا يرجع الى سوء تربيته ثم قال بصوت واضح « ذلك هو السبب ، فهى تفصلك عن أهلك ، مع أن الأم من صلب رجل آخر من عائلة آخرين ، فهى لا تنتمى لعائلتك والرجل لا يدع النساء يتحكمن فى مصيره ويباعدون بينه وبين دمه » . ثم سأل الغبى «أتعرف ما هى عائلة أمك » وكان الغبى يسمع كلمة عائلة فينطق بحرف العين سرا ثم يردد بين نفسه بكلمات فيها حرف العين .. عليه . عربة . عايدة . عبيط . ولما سمع كلمة « دمه » رأى دما أحمر يسيل من أصبع أمه ، وكان يتذكر ذلك اليوم الذى انغرست فيه إبرة آلة الخياطة فى أصبعها وصرخت وهو واقف أمامها ، ثم تجهم وجهها واختلطت ملامحه ،

وأدارت بيدها اليسرى الآلة حتى أخرجت أصبعها ، وقالت له بصوت غريب .. اذهب واحضر القطن وصبغة اليود فجرى خارجا ، ثم وقف أمام صنبور المياه ، وعاد ، فسألته أين القطن .. ورأى الدموع فى عينيها فبكى ورأسه يدور بالسؤال ، أين القطن ؟ أين القطن ؟ ثم نهضت هى وأحضرت القطن من الدولاب .

وقال الشيخ فرحات : « أنت لا تدرى ما هى عائلة أمك . ناس لا أهل لهم ، ولولا أبوك لما سمع عنهم أحد . لا يملكون قيراطا ، ويعيشون فى دكاكين والرزق الذى يأتيهم حرام » .

ولم يقل الغبى شيئا ولكنه سمع عمه يقول : « منذ الآن ستضع أمك فى مكانها الحقيقى .. وستقول لها إنك ابن أبيك وعائلتك هى عائلة أبيك » وقال الغبى « حاضر » فربت الشيخ فرحات على كتفه وقال « الآن عدت الى أهلك يا ولدى » بينما جعل الغبى يردد الكلمات التى قالها العم لنفسه لحظات ليحفظها وقد أصبحت شغله الشاغل .

وقبل أن يقف نهض العم وجذب الغبى وذهب معه الى باب القاعة المستطيلة وكانت الاشجار تبطئ .. والبيوت تتلكأ فى ظهورها واختفائها حتى وقف كل شئ ، فهبطا من القطار وهجم عليهما ثلاثة يتصايحون ويقبلون يد الغبى ، وساروا به حتى أركبوه حمارا وركب العم حمارا وانطلقوا فى طريق بجوار ترعة يستحم فيها أولاد عراة وتشرب من مائها جاموسة ، وقابلهم فى الطريق أناس سائرون على أقدامهم أو راكبون الحمير وكان العم يقول لهم « السلام عليكم » وكانوا يردون عليه السلام .. أما الجالسون على حافة الطريق فكانوا يقولون « تفضلوا » وفى كل مرة يسمع فيها الغبى هذه الكلمة كان يهم بالهبوط من فوق

الحمار ، لولا أن حمار عمه يمضى فى سيره وحماره يمضى فى سيره فلا يهبط ويواصل سعيه فى الطريق . وقال العم وعلى وجهه ابتسامة «يجب أن تسلم على الناس . وتقول لهم السلام عليكم » فقال أحد الثلاثة الذين يمشون إلى جوارهم « لا .. لا نريد أن يعرفه أحد خشية الحسد » وقال آخر « العيون المريضة كثيرة .. ولو كنتم استمعتم لنصيحة أمى لما جئتم إلا ليلا » فقال العم « إنه سيد الناس ويجب عليه أن يقرئهم السلام كسيد ابن سيد » وسكت الآخرون . وهنا ظهرت جاموسة وراءها صبية تقودها بعصا رفيعة أو غصن شجرة فقال الغبى هامسا . أو هكذا خرج صوته دون تعمد منه « السلام عليكم » ولم تجب الجاموسة ولم تجبه الصبية . وسأله عمه إذا ما كان يقول شيئا فقال الغبى إنه يقرأ السلام للشجر والجاموس والأرض والطيور ، و السماء والحقول .. عندئذ قال اثنان من الثلاثة فى وقت واحد « هذا ما تقضى به سنة الرسول لأن كل هذه الحيوانات أو الجماد تتكلم وتقرئنا السلام إذا مررنا بها » وقال العم إن هذا صحيح لولا أننا لا نسمعها ، فهى تتكلم سرا ، ونحن نقرئها السلام سرا فقال الغبى : « لا أقرأ السلام فى مصر » فقال أحد الثلاثة ساخرا :« مصر نسيت ديننا » وقال ثانيهم: « إنهم يصلون بغير وضوء ، وقال ثالثهم : « يكفى أن مصر بها السيدة والحسين ليغفر الله جميع ذنوب أهلها » أما الغبى فكان مشغولا بقراءة السلام لكل شجرة وكل حقل وكل طير وكل بقرة أو جاموسة ، بل إنه كان يلقى السلام لأوراق الشجر واحدة واحدة ولسنابل القمح سنبلة سنبلة ، ولأعواد البرسيم عودا عودا ، بل إنه كان يقرأ السلام لتراب الأرض ولماء الترعة ولروث البهائم ولحوافر الحمار وهو يشعر - إذا جاز هذا التعبير الذى يعلن الكاتب اضطراره اليه لعجزه عن كتابة كلمة أخرى

تقرب المعنى الذى يريد تسجيله – وهو يشعر بأنه مستريح راحة أكبر من تلك التى عاشها من قبل . فهو مع هذا السلام لا يحتاج الى حفظ أو فهم ولا يحتاج الى مذاكرة لينجح فى الامتحان ولا يحتاج الى جهد يبذله على الإطلاق .

وهنا يسجل الكاتب ما يعتبره أول نمو حقيقى للغبى ويعنى بذلك النمو الاصيل الذى يمس الاعماق ولا يقف عند السطح فإذا كان الغبى عانى طوال حياته السابقة من محاولات الحفظ المتكرر للمعلومات التى لا يفهمها أو الكلمات التى يتشدق بها أو يرددها مذعنا للتكرار الذى يفرضه عليه الآخرون مثل أمه أو المدرسين فى المدرسة الا أنه فى هذه المرة وجد صلة مباشرة مع كل ما حوله من الأشياء ، سواء كانوا بشرا أو حيوانا أو جمادا عن طريق قراءة السلام وهو الطريق الذى لا يقره الاذكياء ولا يفهمونه لأنهم يرون بذكائهم الخارق أن الإنسان لا يقرئ السلام لأى مخلوق بشرى إلا إذا كان بينه وبين ذلك المخلوق صلة ما هى فى الأغلب صلة منفعة أما بالنسبة لقراءة السلام للحيوانات والجمادات فلا حاجة بالكاتب لأن يوضح ما فى ذلك من حماقة أو خبل فى اعتقاد كل ذكى .

ووصل الركب الى القرية وسار فيها والسلام لا ينقطع . ورجال يقبلون على الغبى ويصافحونه أو يحاولون جذبه الى دورهم .. حتى دخلوا بيت العمة نفيسة التى أطلقت الزغاريد وأسالت الدموع ثم انشغلت بذبح أوزة قدمتها طعاما للغبى .

كانوا يجلسون فى قاعة لها شباك والنسوة والأطفال يملأون القاعة ، عيونهم لا تترك الغبى ، وعيناه لا تتركهم ، وبين لحظة واخرى يسمع صوتا خارج القاعة . وحديث بين الرجال وتمسك نفيسة بالغبى ،

وتقـول له بصـوت آمـر : « لا تذهب عند السلمـاوية » « لا تذهب عند الجعافرة » حتى جاء العم وقال « لابد أن تذهب الى العمدة وإلا غضب » واحتجت نفيسة وقالت « ولماذا لا يأتي العمدة لابن ابراهيم » ولكن الأمر انتهى بنهوض الغبي وذهابه مع الشيخ فرحات إلى العمدة في دار كبيرة مزدحمة بالناس .

قال العمدة للغبي إنه أضاء البلد بنوره وأعاد لها ذكريات أبيه العظيم الذي كان يعيش لأهله ولا يتواني في خدمتهم وطلب من الجميع أن يقرأوا الفاتحة للمرحوم . ثم مسح العمدة على وجهه بكفيه وسأل الغبي عن أمه وحالها ، قال الغبي إنها في البيت في مصر ، فأسرع العمدة يقول ان هذا البيت سيظل مفتوحا بوجود الغبي الذي كان يستمع إلى العمدة ويرى باب البيت مفتوحا وأمه واقفة تودعه . وكان الغبي يستعد لأن يقول ما حفظه من الشيخ فرحات عن أمه عندما اقتحم مجلسهم رجل سمين أحمر الوجه على رأسه طربوش وعلى جسده معطف تحته « جلابية » وهجم على الغبي يقبله في وجنتيه ويقسم أنه لن يبيت إلا في داره .

قال العمدة إنه لا يريد ان يتدخل في هذا الموضوع . وقال العم إنه لا يستطيع ترك الغبي وإلا منعوه من دخول داره فالجميع ينتظرونه كبارا وصغارا ، رجالا ونساء وأطفالا وقال الرجل السمين إن امرأته طالق إذا لم يقض الغبي ليلة في داره .. وارتفعت الأصوات وتكلم أكثر من رجل ، زعق أحدهم قائلا إنه لا يضمن عواقب مثل هذه الليلة وقال آخر إن حمزاوي لن يسكت ، أما الرجل السمين فزاد تمسكا وعنادا وقال إن هذا هو آخر ما بينه وبين الجميع اذا ما عارضوا طلبه .

وقال العمدة مرة أخرى لا تدخلوني فى هذا الموضوع وجاءه رجل يدعوه للخارج ، فذهب مسرعا وقالوا انه ذهب ليتحدث مع المأمور فى التليفون وقال أكثر من واحد « تكلموا فى هذا الموضوع خارج دار العمدة حتى لا تحرجوه » وصاح الوجل السمين « الحق أحق أن يتبع » وصاح آخرون « ولكنه العمدة ومركزه دقيق »

وقال أحدهم « لعله يروى للمأمور الآن ما يجرى بينكم » فضاق السمين بهذا الكلام وأعلن أنه لا يخشى المأمور وطال غياب العمدة حتى جاء من يهمس فى أذن العم ، فنهض وقال بصوت خفيض : « الافضل أن نذهب الآن » وخرجوا على عجل وركبوا الحمير فى موكب يضم عشرة يسير فى مقدمتهم الرجل السمين ومعه العم ، والغبى يقرأ السلام لليل والنجوم وحفيف الرياح والأضواء الباهتة البعيدة وأشباح الاشجار، لا يكلم أحدا ولا أحد يكلمه ، وفى الطريق انضم لهم رجلان يسيران وراءهما يحمل كل واحد منهما بندقيته ، وغابوا بين الحقول ، والقمر يضئ الطريق اذا ما انقشعت سحابة ، والحديث لا ينقطع والأصوات لا تخمد .. ثم خمدت الاصوات عندما دوى فى النيل طلق رصاص ، وقال أحدهم .. هذا الحمزاوى .. فضحكوا وقال آخر « لو كان الحمزاوى لقتلناه » وكان الرجل الذى يحمل البندقية ويسير قريبا من الغبى لا يبدو عليه شئ فسأله أحد الضاحكين « هل تقتله ياسيد » فقال .. « الأمر لله » .. وسكت .

والتفت العم إلى الغبى وسأله إذا ما كان يشعر ببرد فلم يجب ، وانتفض الرجل السمين وخلع كوفيته ليلفها حول عنق الغبى فتدخل أكثر من واحد يمنع السمين ويقدم غطاء من عنده ولكن السمين لم يتراجع

حتى لف الغبى وعاد العم يسأله إذا ما كان يشعـر بالبرد الآن فقال : « لا » وصاح السمين قائلا إن الكوفية كشمير وإنها تقيه برد طوبة ..

ووصلوا الى بيت وسط الحقول ، دخلوه بعد أن أضـاءه بمصباح نوره قليل ، وجلسوا حول طبلية ووضعوا صحنا كبيرا فيه ملوخية ويجانبه صحن فت فوقـه لحم ، واكلوا والايدى تدس الطعـام فى يد الغبى أو فى فمه ولما جاء الشاى طرق الباب رجل طويل وقال إن المأمور عرف بما يجرى وأنه قال كلاما شديدا للعمدة ، فشتم السمين العمدة والمأمور ، فقال العم إنه يخشى أن يعلم حمزاوى فيأتى برجاله ، فقال أحد اللذين يمسكان بندقية إنه لا يستطيع الاقتراب فهو أجبن من هذا فقال العم إنه لا يهتم كثيرا بحمزاوى ولكنه لا يريد تعريض الغبى لشئ ، فنهض السمين وأقسم إنه وعائلته فداء للغبى الذى كان يغالب النوم أو يستسلم له ، والناموس يقرص ساقيه وخلف أذنيه وساعديه وهو يهرش برتابة ، حتى نهضوا به ووضعوه فوق فرشه وغطوه فنام ..

ولما فتح عينيه ، كان الليل فى الحجرة والشخير يرتفع وهمس صادر من السمين مع رجل آخر ، قال السمين « فى الصباح تذهب الى الكفر وترى بنفسك ان الرجـال لا يعطون اصـواتهم للكلب حـمـزاوى وسأبقى هنا حتى الضحى ثم اذهب الى الكفر ومنه الى بقية القرى التى بها أهلنا » وقال الرجل « وهل تأخذه معك » قال السمين «يكفى انه بات الليل معنا والجميع يعرفون الآن أن ابن ابراهيم افندى فى صفنا » فسأل الغبى : « لماذا لا تنامون ؟ » ونهض وذهب إليـهـمـا وجلس بجوارهما ، قال السمين « انت مثل ابيك كان يستيقظ طوال الليل » ثم قال ضاحكا مخاطبا الرجل الذى يجلس معه « اتذكر شعره الابيض ،

لقد ابيض وهو شاب بسبب خروجه فى الليل فطلع عليه بسم الله الرحمن الرحيم عند الساقية ،كان قصيرا ليس أطول من شبر ثم ظل يرتفع ويرتفع وتطول قامته حتى أصبح أطول من النخلة » قال الرجل « لو كان يظهر لحمزاوى » وقال الغبى « ابيض شعره لأنه لم يقرأ السلام » قال الاثنان السمين وجليسه « هذا حق » ثم اردف السمين قائلا « لولا أن الموقف يذهب بعقل الانسان فلا يستطيع أن يقرأ السلام ليمنع الخطر» قال الغبى « أنا أقرأ السلام » قال السمين « لو رأيته لما استطعت » قال الغبى : « أستطيع » فقال السمين : « اذن فأنت أشجع من أبيك » قال جليسه « أشجع منا جميعا »

ويلاحظ الكاتب ذلك التطور السريع الذى لحق بالغبى فى السلوك أو الكلام منذ اكتشف أو كشف عن طريق السلام فها هو يقول « أنا استطيع » وهذا فى حد ذاته تقدم مذهل للغبى وهو تقدم يتعلق بالقدرة لا الفهم ، مما لا شك فيه أن الغبى لو صادف عفريتا لاستطاع أن يقرأ السلام على عكس الاذكياء الذين يقعون صرعى هذا الموقف الخطير.

ولقد سأل الغبى جليسه « لماذا لا تقرئان الحمزاوى السلام ؟ » فارتبكا ، وقال السمين كلاما كثيرا ، منه أن الحمزاوى عدوه ، وأنه وفدى بينما هو سعدى ، وأنه نصاب ولص ولو فاز فى الانتخابات فسوف يحطم أهل القرية ، والعمدة خائف والمأمور يؤيده لأنه يعلم أن حكومة الوفديين ستأتى إلى الحكم ، وأنصت الغبى الى وقع الكلمات ثم أعاد السؤال « لماذا لا تقرئ الحمزاوى السلام » .

فحدق السمين فى وجه الغبى ثم قال بصوت متهدج « هذا كلام الناس الطيبين وهو يدل على سلامة أصلك ، ولكنك سوف تكبر يوما ما

وتعلم أن الشــر يجب أن تقــابله بـالعنف وتحــاربه بشــراســة .. وإن كنت اتمنى فى قــرارة نفــسى لو كنت اســتطيع أن أحــيــا فى ســلام مع الحمزاوى ولكن هذه هى الحياة وهذه هى مشيئة الله .

سـأل الغبى فـجـأة « مـا هـو بسم الله الرحمن الرحـيم » فـأجـاب السمين فى دهشة وهو يفكر فيما يقصد إليه سؤال الغبى «إنه العفريت» قال الغبى : « بسم الله الرحمن الرحيم تطول وتقصر .. تطول كالنخلة وتقصر كالشبر ؟ » ..

قال السمين « لم أفهم »



الفصل التاسع

فلما طلع الفجر استيقظ العم . وكان الغبى قد نام فأيقظه وتحرك الجميع يتوضأون .

قال العم للغبى « ألا تتوضأ » فسكت الغبى ولم يجب قال العم «ألا تصلى الفجر » فرفع الغبى رأسه وهم بأن يقول شيئا ولكنه لم يقل . كان يرى العم أطول قليلا أو هكذا خيل إليه وكان يرى الرجل السمين أكثر سمنة من ذى قبل وكان نورا أزرق يدخل الحجرة . والأصوات جميعا كأنها ليست أصواتا . ولعل الغبى تردد فى الكلام لأنه خشى أن يكون صوته غريبا مثل أصواتهم .

قال العم : « أفسدتك مصر وأفسدتك أمك .. ألم تتعلم الدين فى المدرسة ، ألم تر أباك وهو يصلى »

قال الغبى « أبى لا يصلى » فصاح العم غاضبا « لا تقل هذا عن أبيك الذى مات » وقال السمين للعم « دعه فهو لا يعرف عاداتنا أولا يفهم طريقتنا فى الكلام » وضحك السمين فاهتز بدنه وقال : « إنه يريد منى مصالحة الحمزاوى » فقال العم ساخطا : « أفسدوه ولم يعلموه ولو كان الأمر بيدى لمنعته من الذهاب الى مصر وعلمته هنا » . فقاطعه السمين : « وماذا تعلمه يا شيخ فرحات » فقال العم وهو يشمر عن ذراعيه

استعدادا للوضوء ، أعلمه الدين وأعلمه العصب فلا ينسى ربه ولا ينسى أهله .

وأقاموا الصلاة ، وركعوا وسجدوا وأصواتهم تزداد غرابة ، ترتفع وتنخفض والغبى يرقبهم أول الأمر وهو جالس فى مكانه . ثم ركع معهم أو هكذا خيل إليه . فالأمر ما كان داخل جسده فضاء عريض ، يتسع للحجرة بحصيرها وفراشها وجدرانها ونافذتها والزرقة المضيئة خارجها . بل إن داخل جسده عمه والرجل السمين وذلك الاخر الذى سهر معه طول الليل . وثلاثتهم الآن يركعون ويسجدون ويقومون داخل الغبى وتمتماتهم هى تمتمات الغبى ، فإذا زعقوا بكلمات « الله أكبر » فهى تدوى فى جسد الغبى وتهتز لها أطرافه فتهتز لها جدران الحجرة والنافذة والزرقة المضيئة خارجها . فلما رفعوا أصواتهم «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته » كان الفضاء داخل جسد الغبى يزداد اتساعا فيشمل كل ما رآه طوال حياته حتى ذلك الرجل الذى كان يلبس السواد ويسأله عن الأبيض والأسود والصغير والكبير فى روضة الأطفال وذلك الطبيب الذى أراد أن يضع آلة حديدية فى عينيه .. وتلك النسوة اللاتى يقفزن وجسد أبيه ممدد على السرير .

وخفض الغبى رأسه . وفتح فمه واتسعت عيناه وتراخت يداه الى جانبه وكان السمين يقول : « اللهم انصرنا اليوم على الحمزاوى » والعم والرجل الآخر يقولان آمين .

ونشطوا بعد الصلاة والغبى مازال مكانه مفتوح الفم واسع العينين وجاءوا بطعام كثير وضعوه أمامهم . ودعوا الغبى ليأكل - فلم يتحرك ولم يتكلم فأمسك به العم وجذبه وحاول أن يدس الطعام فى فمه

المفتوح ولكن الفم رفض الطعام . وقال السمين قلقا . لعله مريض . فنفى العم بشدة هذا الزعم . ووضع يديه على جبينه ثم قال مؤكدا انه ليس مريضا . وقال الرجل الآخر باسما إنه مازال نعسانا وقد سهر الليل .

وزادت الضجة عندما جاءت الحمير ووقفت بالباب .. معها رجال كثيرون بينهم الاثنان اللذان يمسكان بالبنادق وقبل أن يركبوا الحمير رأى السمين كوفيته الكشمير فى يد الغبى . فمد يده وأخذها منه .فهجم العم على الغبى وطوقه بذراعه وسأله اذا كان يشعر ببرد . فارتبك السمين وقال إن الصباح دافئ ولكن العم قال محتدا إنه لا يقر هذه الفعلة حتى ولو كان ثمن الكوفية مائة جنيه وتبادل العم والسمين كلمات حادة . وركبوا الحمير وانطلقوا بها بين المزارع وقد ران عليهم الصمت . أما الغبى فكان يشعر أن ذلك الفضاء العريض داخله قد انكمش . ولم يبق منه سوى مكان ضيق تدق فيه حوافر الحمير .

وقابلتهم نسوة صاح فيهن الرجل السمين : هاهو ابن ابراهيم جاء إلينا من مصر » فانطلقن يزغردن فأضفن الى دق حوافر الحمير أصواتهن الحادة الرفيعة ، وشعر الغبى أن جوفه مزدحم . قال السمين للعم : « أيرضيك هذا ياشيخ فرحات ها هن النسوة يزغردن لمجيئه ؛ فقال العم « لسن بحاجة إليك ليزغردن » فقال السمين « وهل أنكر هذا يا شيخ فرحات » ثم التفت إلى الغبى وقال « اقبل اعتذارى ياولدى . فأنا خادمك وأنت فوق رءوسنا جميعا » .

وكان الغبى يضع نفسه وحماره فوق رأس السمين . ولكن الحمار كان لا يزال فوق الأرض يدقها بحوافره ، وهو لا يزال فوق الحمار

ورأس السمين ليس فوقها سوى طربوش أحمر ، كان كل شئ في مكانه، السماء والشجر والطريق والترعة ، والسواقي ..

قال السمين للغبى « تكلم وقل شيئا .. ولاترد على بصمتك . فأنا أكبر منك » ونظر العم الى الغبى يطلب منه الكلام . واستمر السمين يقول « اعترفت بخطئى .. وقلت إنى خادمك وإنك فوق رأسى ومن حقى الآن أن أسمع قبولك للعذر واعترافك بما بيننا من صلة ومعاشرة وود »

فتدخل العم قائلا : « هذا حق ، فتكلم وأشكر له ما أظهره نحوك من رجولة وشهامة » .

ولم يعد هناك شئ ما داخل الغبى . فعيناه لا تريان وأذناه لا تسمعان ، وارتطمت بجسده كلمات العم : « قل له نحن لا نفرط فى أمثالك ونضعك فوق رءوسنا قبل أن تضعنا فوق رأسك »

وترنح الغبى فتلقفته الايدى وهتف السمين « ألم أقل لكم إنه مريض » وقفز العم من فوق حماره ومشى بجوار حمار الغبى وهو يمسك به ، وعند مفترق طرق مضى السمين وأصحابه فى طريق ، وسار العم والغبى فى طريق .

وقابلهما صراف العزبة . طويل نحيف رأسه صغير . وصافح العم ومد يده للغبى فمد له يده وقال الصراف كلاما للغبى لولا أن قاطعه العم وقال له إنه مريض . قال الصراف : « هذا حال أهل مصر إنهم يمرضون هنا » فقال العم بحدة مفاجئة : « مرضه بسيط وسيزول سريعا » قال الصراف « اذهب الى الطبيب » قال العم « قبل أن نصل الى الطبيب سيشفى »

وتركهما الصراف .. والشيخ فرحات يسبه ويلعنه وقد استاء من

نصيحة استشارة الطبيب وكأنها إهانة .. قال العم للغبى وهو لا يتوقع اجابة : « حقا تريد الذهاب الى الطبيب » أجاب الغبى : « لا » .. قال العم : « لست مريضا ، أليس كذلك » .

أجاب الغبى « نعم »

وفرح العم لسماعه صوت الغبى . وانطلق يقول إن ما أصابه حسد وليس مرضا وإن بين النسوة اللاتى زغردن واحدة لها عين تفلق الحجر . أما ذلك السمين فقد نال ما يستحقه حتى يلزم أدبه ولا ينزع الكوفية من يده دون أن يفكر فى عواقب هذه الفعلة .

قال الغبى « إنه يزداد سمنة »

فضحك العم مسرورا . وقال له : « ها أنت قد شفيت » وارتد البصر للغبى كما ارتد له السمع فرأى الحقول والسنابل والطير وسمع صوت وابور الطحين .

وهنا وقع بصره على رجل مقوس يهتز فى مشيته . جلبابه مقطع فبرزت ضلوع صدره وقطعة بارزة من لحم كتفه ، أما ذقنه فغزيرة وحاجباه كثيفان ، وقدماه كبيرتان تهرولان نحوه ولو قال الغبى شيئا فى تلك اللحظة ، لقال هذا الرجل قادم ليدخل فى جوفى . فالانحناءة بالرأس والهرولة بالقدمين والاتجاه فى المشية ، كل ذلك يؤكد أن الرجل لن يستقر حتى يصطدم بالغبى ويقبع داخله . ولم يكن عند الغبى أى اعتراض على ذلك . بل ان الامر كان يبدو بديهيا بالنسبة له حتى انه لم يفكر فيه . كل مافى الامر أن هذه الهرولة فى فضاء الارض ليس هناك ما يمنعها من الهرولة فى فضاء عريض داخل الغبى .

وصاح العم محذرا « ابعد يا هنداوى » قال هنداوى وهو يقترب

« السلام عليكم » قال الغبى « وعليكم السلام » وهتف العم « ابعد يا ابن الفرطوس » وكان فم هنداوى مفتوحا وعيناه واسعتين وجلبابه الممزق يكشف عن لحمه فأسرع الغبى يكشف بأصابعه فتحة فى قميصه ويرى لحمه ، ووصل هنداوى الى الغبى ومد يده فمد الغبى يده وصافحه و مد هنداوى يده للعم فصافحه و نظر إلى الغبى فرآه يبتسم . قال العم « إنه عبيط ولكنه لا يؤذى » وكان هنداوى يقبل يد الغبى فيبللها بلعابه فأمسك الغبى بطاقية هنداوى ورفعها عن رأسه ووضعها على رأسه هو ، وضحك العم . وقال للغبى « أتريد طاقية .. أعطيك واحدة أنظف وأحسن منها » ، فقال الغبى: « هذه طاقيتى » وهز هنداوى رأسه موافقا .

كانت يد هنداوى على فخذ الغبى . وفخذ الغبى يقبض على يد هنداوى ويد الغبى على كتف هنداوى وكتف هنداوى يقبض على يد الغبى . و الحمار يمشى و هنداوى يلهث معه . وفى عينى هنداوى وعلى شفتيه ابتسامة وبدا كما لو كان لا أحد يسير ، وأن الحركة توقفت . فالزرع لا يتغير . والسماء لا تتغير .. والحمار لا يتغير والعم لا يتغير . ورغم هذا التوقف لم يكن للاشياء ترتيب أو نظام . فالغبى لا يرى نفسه فوق الحمار لأن جزءا منه يسير مع هنداوى بجوار الحمار وقد لا يرى نفسه بجوار الحمار لأن جزءا منه فوق الحمار ، وهو لا يرى السماء فوق والزرع تحت فالسماء فى كل مكان . والزرع فى كل مكان وهنداوى فى كل مكان وهو فى كل مكان . لذا عندما حدث وتباطأ هنداوى وجد الغبى نفسه يحاول الهبوط من فوق الحمار دون أن يدرى انه يهبط . لولا أن تدخل العم وساعده .. وما كادت أقدام الغبى تطأ الارض حتى جري هنداوى داخل حقل فجرى وراءه الغبى . كان كل شئ وكأنه يجرى أو كل شئ وكأنه ما زال مكانه أو يجب أن يظل مكانه ، وكان

العم ينادى . ولكنهما جلسا متجاورين على التراب كتف الغبى ملتصق من ناحية بهنداوى وملتصق من ناحية بسنابل قمح ، وهنداوى يخطط التراب بحجر والغبى يخطط مثله التراب بحجر والعم واقف يحرس الحمارتين.

ومرت بالطريق سيارتان مزدحمتان يثيران التراب والناس داخلها وخارجها وفوقها وفى مؤخرتها . وهم جميعا يهتفون : « الحمزاوى الحمزاوى .. أهل بلدنا مع الحمزاوى »

وجاءت بعدها عربة رمادية ضخمة فوقفت وأطل منها رأس ضابط، قال للشيخ فرحات :

– أين ابن أخيك ..

قال الشيخ واجما :

– هناك فى الحقل

قال الضباط :

– سافر به إلى مصر فى أول قطار ..

قال الشيخ :

– حاضر

وفتح الضابط باب السيارة وهبط منه ونظر إلى الحقل وتقدم ناحية الغبى وهنداوى .

كان الضابط أطول من سنابل القمح ولكنه ليس أعرض منها – فهى ممتدة حتى الأفق تلمس السماء من ناحيتها البعيدة وتلمس الغبى

من ناحيتها القريبة .

وقال الضباط :

– السلام عليكم .

قال الغبى :

– وعليكم السلام .. تفضل .

قال الضابط :

– لماذا تختبئ .. الأفضل أن تعود إلى مصر .

قال الغبى :

– سأبقى هنا

قال الضباط :

– نحن لا نستطيع أن نحرسك .. والمكان خطر ..

قال الغبى

– أنا مع هنداوى ..

قال الضابط مرتبكا : .

– هنداوى مبروك .. ولكنه لا يمنع الأشرار .

والتفت الضابط إلى العم وقال له :

– ابن أخيك عنيد . وتدخله فى هذه الأمور وبقاؤه يوم الانتخابات سيأتى لكم بعواقب وخيمة .

ومضى الضابط والعم وراءه يودعه .. وهو بين الخائف والمزهو

بموقف الغبى الذى لم يقف للضابط ولم يعره أية أهمية . ولكن العم عاد وفكر فى العواقب ، فاقتحم الحقل وقال للغبى « يجب أن نذهب » قال الغبى « لا » وأمسك بهنداوى واحتار العم . وقال لنفسه « لا حول ولا قوة إلا بالله .. هنداوى مبروك وبه شئ من الله والناس لا تصيبه بأذى ولكن الضابط لا يرحم . فاستغفرك يارب !

وركل العم هنداوى بقدمه صارخا فيه أن يذهب فقفز فى الهواء ، وعوى وكان هنداوى يقفز داخل الغبى ويعوى ، والقدم التى تركل ترتفع وتهبط داخل الغبى ، حتى ابتعد هنداوى فقال العم « استغفر الله العظيم .. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » ومد يده للغبى وأخذه خارج الحقل .

قال العم مخاطبا نفسه : « قدمى تؤلمنى » .. وبعد برهة قال : «هذا لأنى آلمت هنداوى » قال الغبى : « أنت ركلته بقدمك » قال العم «وآلمته» فعاد الغبى يقول : « أنت ركلته بقدمك » قال العم : « وقدمى تؤلمى الآن » وساد الصمت ثم قال الغبى « أنت تقول قدمى تؤلمنى وأنا أقول أنت ركلته بقدمك » وكان العم قد بدأ يشعر بضيق متزايد لتكرار الغبى قوله « أنت ركلته بقدمك » حتى أنه لم يعد واثقا هل هو يتألم لأن قدمه تؤلمه أم يتألم لأن الغبى يكرر هذه الكلمات .

فى ذلك اليوم سافر الغبى الى مصر وحده .

« ملوحظة من الناشر » : لم أجد بين الأوراق التالية ما يشير الى الاحداث التى لاقاها الغبى أثناء سفره فبعد ذلك ينتقل الكاتب مباشرة الى زواج الغبى ، والذى ادهشنى حقا هو ورقة ليس عليها كتابة ، بل رموز رسم لخريطة الدلتا أصيص زرع ، وعلامات « زائد » و« ناقص »

ورسم قدم عارية ولقد ظننت أول الأمر أن هذه الورقة قد نسيها الكاتب بين أوراقه التى سجل فيها بحثه للغبى . ولكن – وهذا هو ما أدهشنى – وجدت لهذه الورقة التى عليها الرسوم .. رقما مسلسلا بين بقية الاوراق .. فكأن لها صلة بما قبلها أو ما بعدها – لست أدرى – وعلى أية حال ، هأنذا أقرر هذه الحقيقة وأنوه عنها فربما استفاد منها أحد فى فهم بعض الغموض أو توضيح بعض النقط . وعلى أية حال . لم أصل أنا شخصيا وبعد تفكير طويل إلى مغزى وسر هذه الورقة ، وترقيمها ، وهناك احتمال أن هذه الورقة قد رقمها الكاتب خطأ وهذا محتمل ، أو ربما شئ آخر ، أفضل تأجيل الكلام عنه الآن ، حتى لا يزيد الأمر غموضا أو تعقيدا أكثر مما هو عليه .



الفصل العاشر

ما أجمل الحرف !

من حق الكاتب أن يعلن الآن - دون خجل - أنه يحب الحرف .. نعم الحرف ..

حرف « ب » وحرف « س » وحرف « ى » . كل حرف .

كانت شفتا نعيمة أم الغبى ، هما أول شفتين التقتا بشفتى الغبى، كانت نعيمة تقول للغبى « قبلنى » وتومض عيناها بلمعة ويستدير وجهها . ويهتز رأسها هزة بسيطة ، فيرى الغبى شعرها الأسود يلامس كتفها ، أما يداها فممدودتان ، وشفتاها مضمومتان .. وخدها طرى ، وصدرها ظاهر ، وتقول نعيمة « قبلنى ياولد » ، وتتسع استدارة الوجه واليدان الممدوتان تجذبان الغبى إلى الصدر ، والشفتان المضمومتان تضغطان على شفتى الغبى ، وكان لحم شفتيه يتراجع وينفرج .

والومضة فى عينيها تنفذ فى عينيه .. وأصابعها تنفذ فى كتفه وظهره ، ورموش عينيه فى شعرها وهواء من فمها فى أنفه ثم تبعده نعيمة وتنظر فى عينيه ، والومضة اختفت من عينيها وأصابعها تتسلل الى خده ، وأصبعها يدور فى أذنه ويحتك بشئ ويخرجه من الأذن ، فتنظر إليه وتعيد أصبعها الى أذنه ، ورأسه على حجرها عيناه فى وردة

بنفسجية وأصابعها في شعره ، تفرقانه وتحك بأظافرها قشره وعيناه بنفسجية .. وحجرها يتحرك ، ومنديل يضغط على أنفه ويدخل فى أنفه وعيناه مغمضتان .

وتقول نعيمة للغبى « قبلنى » .. عيناها ضيقتان ووجهها طويل ، وتنحنى ويرفع الغبى رأسه ، وتضع نعيمه خدها على شفتيه وتمسك بكتفه وتديره وتمد يدها الى خصره ، وتدخل القميص فى البنطلون وتقول له « اذهب » .

وتقول نعيمة للغبى « قبلنى » وهي راقدة على السرير .. وترفع يدها ببطء ، وتمسكِ بيده ، وتجذبه فينحنى وتضغط شفتيه على جبينها ، ويهتز صدرها فتمسك بمنديل تضعه على فمها ، وتزيح الغبى بيدها ، وتغمض عينيها ، وهو واقف الى جوار السرير .

ومع مرور السنين ، اكتسب الغبى القدرة على استعمال شفتيه بحرف « ب » وكأنه يتردد على شفتيه دون أن يسمعه وكأنه يتردد فى جوفه كأنه هو بجسده كله حرف « ب » .. كأن كل ما يراه حرف «ب» .. فلحظة القبلة لم تعد ومضة عين ، واستدارة وجه أو استطالة ، ولحظة القبلة ليست يدين ممدوتين تجذبان ، وليست شفتين مضمومتين أو منفرجتين ، إنها لحظة « ب » وكلمة قبلة لم تصل أبدا إلى الغبى ، وهو لم يفهم معناها .. ولكنه احتفظ بحرف « ب » من بين حروفها الأربعة .

وهكذا كان من بين أحوال الغبى ، تلك اللحظات التى تعتريه .. فينظر الى سكين ، أو مدخنة قطار ، أو مياه نهر أو باب مغلق أو نخلة أو كرباج ، أو مسمار فى حائط فيفقد رؤيته لهذه الاشياء وتتحول جميعا الى ب ب ب ب حتى الغبى نفسه يصبح « ب » .

وكانت « ب » معتمة ولكن لها ضوء شاحب كضوء غروب يوم معين في عام معين عندما تشاهده في مكان معين ..

والكاتب لا يستطيع أن يجزم بأن الغبي قد مر بلحظة الغروب المعينة تلك ، ولعلها لحظة تسربت إلى نفس الغبي فكأنه رآها أو يتوقعها، أو شئ من هذا القبيل .. وحدث أن أرسل العم بصبية من القرية لتخدم في بيت الغبي .. صبية في الخامسة عشرة ، وإن بدا جسمها أكبر من ذلك بقليل وكانت حلوة في نظر الأذكياء ، لها وجنتان متوردتان ، وعينان واسعتان صافيتان وشعرها أحمر ، أما شفتاها فلهما انحناءات في خط طويل نسبيا يلفت النظر ويغرى حقا كل رجل بتقبيلهما ..

وعصر أحد الأيام كان الغبي وحده في البيت ومعه الخادمة ، وقد خرجت نعيمة وهي مطمئنة تماما إلى أدب ابنها وحسن سلوكه وانشغاله بالمذاكرة لامتحان التوجيهية .. ولما دخلت الخادمة حجرة الغبي ، كانت صفحات الفلسفة تنطبع في رأسه ، صفحة بعد صفحة بترقيمها وتبويبها ورسم كلماتها ولون ورقتها ، وكان الغبي يردد بصوت مرتفع آلي : « وقال أرسطو إن حاجاتنا هي التي تشكل الروابط الاجتماعية ، لأن الناس لا يتعاملون مع بعضهم البعض إلا إذا كانوا في حاجة الى خدمات الآخرين » .

قالت الخادمة : « سيدى » ..

قال الغبي : « لا يتعاملون مع بعضهم البعض .. لا يتعاملون مع بعضهم البعض .. »

قالت : « سيدى » ..

قال : لا يتعاملون مع بعضهم البعض إلا إذا كانوا في » .

قالت : « سيدى » ..

قال : « إلا اذا كانوا فى .. إلا إذا كانوا فى ...»

صاحت : « ياسيدى » ..

قال : « وقال أرسطو إن حاجاتنا .. وقال أرسطو إن حاجاتنا .. وقال أرسطو إن حاجاتنا .. »

فوضعت يدها على كتفه وهزته .. « حاجاتنا .. الروابط قال أرسطو .. » ورأى الوجه والعينين تومضان ، والشفتان تبتسمان ، انحناءاتهما كثيرة ، والصدر عريض ، والهواء يخرج من الفم ليدخل الأنف : « كلمنى .. الشاى برد » .. يداها تضغطان على كتفه .. يدها تتحسس جبينه .

وصمتت الخادمة .. كأن شيئا فى نظرات الغبى يحرك فى نفسها تاريخا مجهولا أو غامضا .. أربكها وحاصرها فلم تقو على البعد ولا الكلام بل انجذبت إليه فلصقت خدها بخده ثم حركت شفتيها على خده وعيناه على صفحة كتاب وسطور وحافة مكتب وعيناه على ركبتيه وجزء من طرف صدرها البارز ... ثم اختلطت هذه الأشياء وانبثق فى رأسه حرف جديد ، حرف « س ، س ، س ، س ، س » ،« س » لونه أقرب الى الصفار ، وله وهج كوهج الشمس .. إنه لا شئ غير وهج ، وله صرير غير مسموع ولكنه مسموع . وهو صرير متقطع ولكنه مستمر ، وهو صرير يشتد أو – بدقة أكثر – يزداد وضوحا س ، س ، س ، س

وكانت هى تقول كلاما عندما بدأ ينتبه اليها كانت تهمس «خذنى» والوهج يخمد والحرف يتلاشى والحجرة تعود إلى الوجود تغمرها شمس العصر ، والكتاب قد انحرف مكانه قليلا .. والباب الخارجى يدق، وهى منكفئة عليه . فابتعدت ببطء .. ومد يده ليصحح وضع الكتاب ، فاستقامت السطور .. وفتحت هى الباب وارتفع صوت صبى الكواء ..

«قال أرسطو. قال أرسطو » .. خطواتها تدق أرض الصالة ، قالت :« انتظر .. انتظر سيدتى فى الخارج » .

« أرسطو .. أرسطو .. أرسطو .. ليس معى نقود » .. ورفع يده وأدخل أصبعه فى أذنه ، وحك بأظفره حتى زحرح قشرة سوداء .. نظر اليها ووضعها بين شفتيه وقضمها بأسنانه ولفظها . طو.طو. طو..«أتريد شيئا » .. التفت إلى مصدر الصوت . كانت واقفة عند الباب « لا » جسدها متكئ على الباب ، قال : « الشاى برد » قالت : « لن أصنع لك غيره » . واختفت ، فقام وأطل من النافذة ، أولاد يركلون كرة سوداء ويجرون ويتصايحون .. وعربة تطلق نفيرها وهى تخترق صفوفهم، وشجرة فوقها طير ينشر جناحيه ويطير ، ومدخنة تخرج منها سحب سوداء وحفرة بها ماء على الرصيف ، ورجل يسرع الخطى ونسوة أربع فى ملاءات سوداء يطلقن عويلا وصراخا ووراءهن طفلان .

وظل عمود النور طويلا على الاسفلت تعبره دراجة . فوقها طاقية بيضاء وجلباب ووجه وقدمان حافيتان . س . س . س . كان واقفا فى المطبخ وهى واقفة أمام وهج نار حوله حديد .. قالت : « ابعد عن النار ». فاقترب . قالت : « تلسعك » .. ورأى يده فى النار ولكنه لم يمد يده ، وكانت هى تبتسم ، وجسدها ملتصق بجسده ، جلبابها الازرق ملتصق بقميصه الأبيض . قالت : « لماذا لا تتكلم » ، قال « أتكلم » . قالت : «أنت لا تفعل شيئا غير المذاكرة » . كان ينظر إليها صامتا . فعادت تقول : « لولا نظراتك .. انها تقول » وابتسمت ، فردد الأسماء وهو يراها من شعرها إلى قدميها ، قالت : « خذنى ». فردد الاسماء بيده.. قالت : ماهذا ؟ » .. قال : « أقرئها السلام » فضحكت وازدادت التصاقا به . قال : « وهى تقرئنى السلام » . فقبلته فى شفتيه ، فردد بملمس شفتيه الاسماء ، قالت «الشاى ساخن » وابتعدت فاستقامت

كلمتا « الشاى » و« ساخن فى رأسه غامضتان . قالت : « أصب لك الشاى » . وانطفأ الوهج وشرب الشاى .

كلما اختفت الام من البيت ، برز الحرف وعاد . س . س . س ..
وقالت الأم للغبى : « شهر مضى وأنا أسمعك تردد : « قال أرسطو إن حاجاتنا .. ألا تذاكر غير هذه الكلمات .. ألا تحفظ غيرها » .

وأمسكت بالكتاب وقلبت الصفحة .. « متى تقرأ هذه وهذه » وكان الغبى مطرق الرأس ، عيناه تتابعان السطور والصفحات .. وانحنت الأم وقبلته « أغضبت » ومع القبلة ظهر حرف « ب » معتما له ضوء شاحب . و لكن عتمته لم تكن نفس العتمة التي تعودها . والضوء الشاحب كان به شئ أخر غير الشحوب .. لو استطاع الغبى أن يعبر عنه ، لقال إن به مسحة من وهج .

وربتت نعيمة على كتفه ، وحرف « ب » يعانى من ظـلال حرف « س » وفجأة قال الغبى : « البنت » . قالت الأم : « البنت الخادمة » قال الغبى : « نعم البنت » . قالت الأم وقد استبد بها القلق : « مالها » .. وسكت الغبى ، ودبت الشكوك فى صدر الأم .. فتركت الغبى وذهبت الى الخادمة وتأملتها كأنها تفحصها لأول مرة وأغلقت باب المطبخ وحاصرتها حتي سمعتها تقول : « هو الذى يطاردنى » . وخـرجت الأم من المطبخ وعـادت الى حـجـرة الغبى ووقفت تتأمله بين خـوف واعـجاب . وطردت الخادمة .

كـانت هذه هى بداية تفكير الام فى زواج الغبى ، وقد اتخذت الاحتياطات الضرورية لإبعاد الغبى عن الغواية حتى لا يشغل نفسه بغير المذاكرة ، وهذا هو ما حدث فعلا .. ورغم أن خادمات كثيرات ترددن على البيت ، لكن الغبى لم يدرك أنه قادر على ممارسة «الحرف» معهن ، وربما كان أحد أسباب عدم إدراكه أن الأم تعمدت أن تأتى

بخادمات صغيرات ، ولكن الكاتب يعتقد أنه حتى لو كانت الأم قد جاءت بخادمة أشد فتنة وجاذبية من تلك التى طردتها لما تحرك الغبى .. ولكان بحاجة الى مجهودات من ناحية تلك الخادمة الجديدة ليستأنف قدراته السابقة ، فالغبى - كما يتصور الكاتب - لايريد امرأة . وهو لا يشتهى ولا ينفر وليست لديه أدنى فكرة عن كلمات مثل « الغريزة » أو « الجنس » أو « الشهوة » ، ولكنه يتورط فى تفاصيل وكما لاحظنا أنه يتعامل بالكلمات ، ولكنه يتعامل أحيانا بالحرف ، فحرف « ب » الذى اكتشفه الغبى أو تحول اليه الغبى مع قبلات أمه . ليس خاصا كما قد يتوهم الاذكياء بالقبلة .. وإنما هو خاص بتفاصيل أحداث بالذات وقعت فى زمان محدد ومكان محدد. فالقبلة عند الغبى ليس لها أى معنى .. وهو لا يعررف قبلة عاطفية ، أو قبلة نهمة ، أو قبلة حارة .. أو قبلة خاطفة . ولو كان قادرا على شرح معنى القبلة عنده .. لسرد تفاصيل مواقف مر بها مع أمه دون أن يخرج بتصور شامل وعام لهذه المواقف . ونفس الشئ بالنسبة لحرف « س» الذى تحول إليه الغبى فى تجاربه مع الخادمة فهذا الحرف خاص بمواقف بذاتها حدثت بين الغبى والخادمة .

غير أن هذا التحديد الدقيق الذى يوضح به الكاتب رأيه ، لا يفسر لنا تلك اللحظة الغريبة التى كاد يختلط فيها حرف « ب » بحرف « س » عندما قبلت الام الغبى بعد أن لامته على تكاسله فى حفظ دروسه .. وهذا النوع من اللحظات الغريبة ، يعترف الكاتب بوجوده ، ويقرر بعجزه عن شرحه وتفسيره .. وهذا أمر لا يدعو إلى الانزعاج إذا ما سلمنا بأن قدراتنا الإنسانية تفوق بكثير الآفاق التى نستطيع تحديدها تحديدا دقيقا بالعقل والمنطق .

ولقد استطرد الكاتب فى هذه النقطة بالذات لأنه لاحظ أن الغبى

رغم انصرافه إلى المذاكرة وابتعاد الخادمة عنه .. كانت تعاوده لحظات من حرف « س » وهى تلك اللحظات التى كان يختلى فيها بنفسه فى حجرته ، فيقرأ الأسماء فى جسده بعينيه ويده ، ويسترد بذلك لحظات الوهج والصرير .

ومع ذلك فالكاتب ليس واثقا تماما من أن تلك اللحظات هى استرداد لحرف « س » لأن اللحظة لم تكن مطابقة تماما للحظات السابقة بين الغبى والخادمة ولأن صفارها ووهجها كان مشوبا بعتمة غير واضحة ، وكان الغبى يمارس هذا الحرف الجديد المشتبه فى أمره فى لحظات وحدته .. عندما لا يضغط عليه الوجود المحيط به ... وجود أمه وأوامرها وتعليماتها . وحياتها .. ووجود كتاب وسطوره ومحفوظاته ... أو وجود حركة تملأ عينيه . حركة أجسام أو حركة أصوات كان لابد أن يسكن كل شئ .. كان يسود الظلام فى الليل طبعا .. أو يخلو البيت وتطبق العزلة وعندئذ يتسلل الحرف المشتبه فيه ، والذى قد يكون حرف «ص» فيملأ عينىْ الغبى ويملأ كفه .. وفى لحظات أخرى ولكنها أقل نسبيا . كان الغبى ينسى وهو وسط الناس كل من حوله ، أو ينعزل عن ضغطهم ، فتقع عينه على جذع شجرة ، أو ساق امرأة .. أو مقدمة سيارة أو - أحيانا - تقبض يده على قلم ، أو يلمس طرف أنفه .. أو يمسك بمنديل ، وعندئذ يتحول ما يراه أو ما تقبض عليه يده كما يتحول هو الى حرف « ص » دون أن يلحظ أحد .

وبالحروف الثلاثة « ب » و« س » و« ص » استقبل الغبى وهو فى الثانية والعشرين من عمره كلمات أمه :

« اخترت لك عروسة » .

الفصل الحادى عاشر

قبل أن يسترسل الكاتب فى الكلام عن الزواج يرى أنه مضطر الى تنبيه القارى - معتذرا له بأنه لن يستعمل منذ الآن كلمة (الغبى) .

والكاتب يذكر أنه فى أول هذه الدراسة أعلن أنه وصف الغباء سيظل صادرا منا نحن الذين نواجه (محمود) مهما قلنا عن غبائه ، فهذا الغباء ليس حقيقة موضوعية من محمود ، وانما هو حكم منا نحن الغرباء عنه .. نحكم به عليه وهذا يجعلنا فى موقف أخلاقى حرج . فلماذا نقول إن «محمود» غبى ؟ .. ولنتصور« محمود » يعيش وحيدا لا يعرفه أحد . هل كان يصبح غبيا . إننا نحن الأذكياء نحمل الغباء معنا ونلطخ به من نشاء .

هذا هو ما ذكره الكاتب فى أول دراسته ولقد آن الأوان لمراجعته وتأمله بعناية أكبر وفى هذه المرحلة بالذات من حياة محمود حيث نتكلم عن حياته الخاصة ، وعلاقته بزكية زوجته . إنه يكاد يكون من المستحيل أن نقحم الغرباء والأذكياء على غرفة نومه . وهم يحملون معهم لقب (الغبى) وفضلا عن أن مثل هذا التصرف ينبو عن الذوق السليم . فهو أيضا مسلك غير صادق يشوبه الزيف .

ولقد كان لقب الغبى محتملا حيث اختلط محمود بالغرباء سواء فى المدرسة أو مع الأقارب فى الريف أو مع رجال الانتخابات

وعلى العمـــوم حيث كان هناك مجتمـــع كبير يختلــط به محمـــود .

ولقد لاحظنا من صلات محمود الخاصة بأبيه أو أمه أو هنداوى أو الخادمة التي طردتها أمه . انه كان يظهر مقاومة شديدة للقب الغبى رغم انه لم يفصح عن هذه المقاومة بكلمة أو انفعال بل كانت مقاومته للقب الغبى بمجرد كيانه ومسلكه . وبمجرد وجوده . وهذا تواضع عظيم من ناحيته ويزيد من عظمته أن «محمود» لا يشعر به ولم يفكر فيه .

فمحمود لم يقاوم - فى الحقيقة - لقب الغباء مثلما قد نتوقع من الأذكياء اذا مامروا بنفس التجربة ، وعانوا منها . وكل ما فى الامر انه مضى فى حال سبيله دون أن يسمح لكيانه أن يتأثر بلقب أو حكم صادر عليه . حتى أصبحت كلمة (الغبى) أشبه بحجر نقذف به محمود» دون أن يتأثر به أو يصاب بجرح .

والكاتب الآن عاجز تماما عن مواصلة قذف محمود الحجارة وهو يشعر فى قرارة نفسه أن الاستمرار فى وصف محمود بالغباء ، أصبح عبئا أو عملا صبيانيا أو اجتذابا للضحكات أو إثارة للسخرية حول كائن قوى متميز . هذا بالاضافة إلى أن علماء النفس لا يتفقون معه على وصف حالة محمود بالغباء . فهو يستخدم الكلمة كتعبير شعبى غير علمى . له نكهته الخاصة احيانا ولكنه يبدو مبتذلا أحيانا .

وصحيح أن « محمود » لا يشبه الأذكياء أبدا . إنه يختلف عنهم تماما . وصحيح أنه لا يفهم لغة الناس ولا يتعامل بها . وصحيح أيضا أن هذا الاختلاف الذى يميز محمود قد يجد بين الأذكياء من يصفه بالغباء.

وهذا هو ما كان يفعله الكاتب ويتورط فيه حتى الآن ولكن كل هذا لا يفيد فى شئ . إنه لا يصل إلى محمود ولا يؤثر فيه ولا يكشف المزيد من أعماقه بل هو يضلل اذ يريح صاحب الحكم راحة سطحية . ويحدد

آفاق فهمه لمحمود بتلك الحدود المصطنعة التى قيدها لقب (الغبى) .

ومرة أخرى يعود الكاتب لتذكيرنا بما كتبه فى أول هذه الدراسة . إذ قال : (أعتقد أن من واجب الأمانة والذمة أن أنبه من يقرأ هذه الأوراق إلى انى أحاول أن أكتشف لنفسى طريقا أو مسلكا لحريتى . وفى نفس الوقت الذى أدرس فيه غباء محمود وما دمت فى مجال تنبيه القارئ إلى أشياء تغيب عنه بسبب عجزى عن التعبير أود أن أقول له أنى لا أعرف الخيال الأدبى ولا أعرف شيئا فى فن كتابة الروايات وكل همى هو أن أسجل الحقائق والوقائع بدقة . رغم ما فى ذلك من صعوبة شديدة . وكما قلت أنا لا أفكر لأكتب .. بل أكتب لأفكر) .

هذا هو الذى كتبه الكاتب فى أول دراسته ، ولقد قطع الكاتب شوطا طويلا فى الكتابة أى قطع شوطا طويلا فى التفكير ولقد انتهى به تفكيره الآن إلى أنه إذا أراد أن يكتشف لنفسه طريقا أو مسلكا لحريته فى نفس الوقت الذى يدرس فيه غباء محمود . فعليه أن يتخلص تماما من (حكم) الغباء على محمود . وعليه أن يواجه رحلة غير محدودة مع انسان سيتعامل مع الحياة (بالحرف) لا بالكلمة . فيعاشره دون أن يحاول الضغط عليه أو الحكم عليه أو تحطيمه أو الهرب منه مع الادعاء بأن هذا الهروب ليس هروبا وإنما هو اقتراب منه .

إن هذه الطفرة فوق الغباء فوق الألقاب والأحكام هى سبيل الكاتب الوحيد فى هذه المرحلة ، لاستئناف الرحلة مع محمود لا مع الغبى .

غير أن الكاتب لا يثق فى اسم (محمود) لأنه كلمة والأفضل أن نهتدى بالحرف فى معاشرة محمود ولأمر ما يصعب تحديده وتوضيحه يختار حرف (غ) رمزا لمحمود .

اسمها زكية .

لها وجه ولها شعر وضفيرتان ولها عينان سوداوان ولها أنف وفم وذقن ولها صدر وذراعان وبطن وفخذان وساق وساق وقدم وقدم .ولم يكن هناك ما يؤكد أن لها لسانا وإن ظهرت أسنانها البيضاء أكثر من مرة ، وكانت تخفض رأسها وتعقد يدا بيد فوق حجرها وقد ترتفع رأسها مع التفاتة ..

وأثناء طقوس الفرح رآها (غ) بيضاء محاطة بورود وناس يتكلمون ويضحكون ويتحركون وكانت الانوار كثيرة والاصوات عالية . ثم سكن كل شئ واختفى الناس وتحولت زكية من اللون الأبيض إلى اللون الوردى . وتحولت من جالسة على مقعد إلى راقدة على سرير وكان النور مضاءً فأطفأه .

ونام .

فلما جاء الصبح رآها راقدة بجواره تنظر إليه . بينه وبينها شبران . واللحاف فوقه وحده والباب مغلق والحائط رمادى والمرآة وراءها تعكس ظهرها وقميصها الوردى والدولاب الذى على يمينه وكان الدولاب مغلقا . وكانت تبتسم .

قالت (صباح الخير) فقال (صباح الخير) وانفرجت شفتاها عن ابتسامة وتثاؤب ورأى طرف لسانها وشعرا فوق جبينها وحسنة سوداء على كتفها وقالت (مالذى تنظر إليه) قال (هذه حسنة) قالت (أتعجبك) واقتربت (الحسنة) منه فمد يده ولمسها بأصبعه وحكها فمدت يدها إلى عنقه وقالت (عندك مثلها) وضغط ذراعها على صدره

ولمست قدمها تحت اللحاف قدمه . والتصق ساقها بساقه وضربت أنفاسها أذنه فاستدار بوجهه فضربت أنفاسها عينيه .

كان لأنفها فتحتان . تحتهما مساحة من لحم أبيض في منتصفهما منخفض .. تمتد تحته أفقيا شفة مرتفعة . قالت (ألا تزال نعسانا) قال : (أنظر لشفتك) قالت : (لماذا) وهبطت عيناها تنظران في عينيه . وتبتسمان . عيناها سوداوان داخلهما اضواء وصور وسكك ، كانت يده على كتفها ورأسها على صدره وعيناه تمشيان داخل عينيها وكان يسير داخل عينيها . والدفء يسرى في قدميه وساقه . وكان يسير الى مالا نهاية .. حتى سمعها تنادى (اسمه) .. كانت تهمس ، فرأى وجهها .. وشفتاها مفتوحتان وداخل فمها لسان كامل ، وأسنان ولحم طرى يضغط على جنبه ونظر في عينيها فرأى رموشها وأغمضت عينيها، جفناها مكوران في نهايتهما رموش وفوقهما حاجبان ، الرموش طويلة وشعر الحاجبين قصير وفتحت عينيها وهزت وجهها وتراجعت وكتفها ينسحب ببطء تحت كفه وأطرقت برأسها وقالت (أحضر لك الفطار) قال : « نعم » قالت : (ماذا تريد) .. قال : (شاى وبسكويت) .. ورأى الباب المغلق وفتحه وأغلقه وهو مازال راقد مكانه .. الباب يفتح ويغلق ، الباب المفتوح ، أدخل وأخرج منه ، الباب المغلق يفتح لأدخل وأخرج منه أخرج إلى الحمام على اليسار ، أخرج الى الباب الآخر وافتحه وأخرج إلى الشارع أذهب إلى الوزارة قال (غ) هامسا .. أنا في أجازة .. ورأى زكية جالسة على حافة السرير رأسها خفيض يكاد يهبط إلى حجرها وظهرها يهتز فيهتز معه اللون الوردى ويهتز الكتف الذى عليه الحسنة أما اهتزاز الضفيرتين فكان أقل بكثير وكانت تصدر

صوتا يشبه ذلك الصوت الذى يقولون إنه بكاء .. ولذلك قال.. (أنت تبكين) فلم تجب على سؤاله وزاد اهتزازها فوضع يده على كتفها فاهتزت يده فاهتز ساعده واهتز كتفه وصدره وبكى والتفتت اليه ونهضت وفتحت الباب وذهبت وعادت مطرقة الرأس تحمل صينية عليها شاى وبسكويت وصحن فول وبيض .

وفتح الباب الآخر ودخلت أمها وجلست فى الصالة مع زكية وفتح الباب مرة ثانية ودخلت نعيمة وجلسوا جميعا يضحكون وقال إن إفطاره شاى وبسكويت وفول وبيض وقال إنه نام مستريحا وسألته أمه وهى تبتسم إذا ما كان مسرورا فابتسم وقال إنه مسرور .. وسأته اذا كان استحم بماء ساخن فقال إنه لم يستحم وتبادلت نعيمة مع أم زكية همسات غير مسموعة ونهضت زكية وتبعتها أمها وبقى (غ) مع أمه . قالت له (هل أنت خجل) قال (لا) قالت (وما الذى تنتظره) قال (لا شئ) (قالت إنها حلوة وطيبة) قال (نعم) قالت (ألا تعجبك) قال (تعجبنى) قالت (أليست أفضل من تلك الخادمة) قال (البنت) قالت (نعم تلك التى طاردتها) قال (انت طردتها) قالت (خفت عليك ولكنك رجل وها أنت متزوج بعد تعيينك فى الوزارة ، فاختلطت الكلمات فى رأسه . البنت . طاردتها ، طردتها . خفت ، رجل متزوج ، تعيينك . الوزارة ، عاد يقول (البنت) همست الأم (ألا تعلم .. افعل مع زكية مثلما كنت تعمل معها) ورأى وجها وسمع صريرا ورأى نارا حولها حديد وشاى بارد وشاى ساخن ورأى شفتين انحناءاتهما كثيرة وشعر أحمر قال (شعرها أحمر) وسمع الأم تقول ووجهها يتغير (أيعجبك الشعر الأحمر ؟ قل لها تصبغ شعرها لماذا لم تقل لى ...) وأضافت

الأم مزيدا من الكلمات التي اختلطت بصور الوهج والنار وصوت الصرير وكان يرى بعينيه كل هذا وكأنه يتفرج عليه قالت الأم (يجب أن تفعل وإلا تركتك والذنب ذنبك) ثم قالت (هذا عيب) ثم قالت (قم واذهب إليها أنها غاضبة) .

نهض وذهب إلى زكية فى حجرة نومه ، كانت تجلس علي السرير وبجوارها أمها .. كانت رأس زكية على صدر أمها ويد أمها على كتف زكية ، فلما دخل رفعت زكية رأسها ومرت بيدها على عينيها ورموشها .

ونظرت الأم إلى (غ) وارتفع صدرها وانخفض وقالت (استغفرك يارب) قال (غ) مخاطبا زكية (أنت غاضبة مني) فقالت الأم (أبدا ولماذا تغضب منك إنها صغيرة وهذا أول يوم لها تبعد فيه عنى .. قطعة من لحمى تركتنى وهذا يؤلمنى كما يؤلمها) ونظر (غ) إلى زكية فى خديها وصدرها وبطنها ونظر إلى لحم أمها فى خديها وصدرها وبطنها ومد يده وقربها منه حتى التصق لحمها بلحمه وقال : (لا تغضبى) فقالت الأم (أنت ابن حلال وزكية بنت عاقلة وهى لك فكن أباها وأمها) قال (غ) : إنها لى .

فلما أغلق الباب ورقد فى السرير كان (غ) لا يزال يردد لنفسه كلمات أمه (البنت طاردتها ، طردتها ، تتزوج ، الوزارة ، طردتها غاضبة) وكان يرى الوهج والصرير ، إنه يتفرج عليه وكان لا يزال يردد كلمات أم زكية (صغيرة ، لحمى ، تركتنى ، يؤلمها) وقد اختلطت كلمات أمه بكلمات أم زكية . وكان يضم زكية إليه ولا شئ مستقر ولا شئ مضطرب المصباح فوق الدولاب ، والدولاب تحت السرير و السرير فى السقف والباب فى المرآة وصدره فى أصابع قدمها ويداها فى حلقه ..

وأصبحت الوزارة فوق المشجب والمشجب فى السماء والسماء فى الحمام والحمام فى القطار ، والقطار فى الصالة .

وقرأ (غ) لهذا الخليط السلام ونام وقالت أم زكية للرجال فى عائلتها فتشاوروا وجاءوا يزورون (غ) قالوا : (ألم تقرب امرأة) قالوا : (هيا بنا نعلمك ما لا تعلم) قالوا :(الادب لا يفلح لأنه ليس أدبا) قالوا « تشجع يارجل فالمتعة أكبر مما تتصور » قالوا : « هل انت ناقص ، هل أنت عاجز » قالوا : « الصراحة واجبة » وقال وجه سمين (كيف كانت لياليك) قال غ : « فى الليل أنام » فقال الوجه : « تنام فقط » قال غ «فى الليل أنام » قال الوجه « وعروسك » قال غ « تنام » وأصبح الوجه أربعة وجوه ملتفة حوله تضحك وتتكلم « ألم يحدث بينكما شئ » قال غ «رأيتها » قالوا «ماذا رأيت» قال « قميصها وذراعيها وقدميها وشعرها » وقاطعوه « وماذا لمست » قال «كفيها وخدها » قاطعوه « وماذا فعلت » قال «أكلت» قالوا « وماذا فعلت هى » قال « بكت » .. واتسعت أفواههم فبرزت أسنانهم .

وتمايلوا واهتزوا وصفقوا وقفزوا وتعانقوا ودمعت أعينهم وكان من المحتمل أن يقف أحدهم فوق رأس الآخر ويمشى أحدهم على الحائط ويتشقلب أحدهم في الهواء ولكنهم اكتفوا بما فعلوه والتفوا حوله وقالوا « اسمع فنحن نعلمك » فاستمع (غ) إلى كلامهم ورأى الوهج وسمع الصرير مختلطا بأنوفهم وعيونهم وأيديهم مختلطا بضجيج الشارع وسحب السماء وجدران الحائط وباب الحجرة وفناجين القهوة ودخان السجائر ولكنه ظل يشاهد بعينه .

وكانت زكية ترقبه وهو نائم فاشتد بها حنان فلكزته برفق حتى

استيقظ وهمست (منظرك وأنت نائم يذكرنى بطفل) ، وكان النوم يثقل جفونه والومضة فى عين زكية وهواء من فمها يتحسس وجهها . واقتربت شفتا زكية من شفتيه فإذا بحرف ب يستقر فى شفتيه ب . ب .

والعتمة غامرة ..

وتسلل حرف س بوهجه وصريره يقوض العتمة . وتسلل حرف ص إلى كفه واختلطت الحروف موزعة بين شفتيه وكفيه وأطرافه . أمه ورأسه فى صدرها وشفتاها فى شفتيه وكفه تمسك بغصن شجرة وقلم وساق وأطرافه تقرأ الأسماء من الخادمة والشاى الساخن .. فلما برد وانطفأ الوهج وذهبت العتمة واختفى الصرير رأى زكية راقدة بجواره والسرير على الأرض والسقف فوق الدولاب على اليمين والباب مغلق وأمه فى بيتها وأم زكية فى بيتها والوجوه فى الوزارة تتساقط وتستقر فوق أجساد جالسة إلى المكاتب .



الفصل الثانى عشر

مدت زكية يدها وتحسست وجهه ومرت بأصابعها فى شعره وزحفت على صدرها حتى ارتفع فوق صدره فتحسست وجهه بشفتيها وهمست (أتحبنى) ، وسمع (غ) الكلمة فبحث عن مكان يضعها فيه فوق السرير أو فى الدولاب أو يحتفظ بها فى رأسه . الكلمات تخرج من أفواه الناس وتحوم حوله ولا تستقر ، تظل معلقة . ولقد تعود أن يحفظ الكلمات ليحتفظ بها وليخرجها عندما يطلبونها . الكلمات والذباب أشياء لا تستقر أبدا ولا تنتهى أبدا .. وردد لنفسه (أتحبنى .. أتحبنى .. أتحبنى) حتى فوجئ بها تهمس (أحبك) لو استمرت فى الكلام فلن يستقر شئ (أحبك .. أحبك .. أحبك) .

كان يردد الكلمة الجديدة لنفسه عندما رفعت صوتها (ماذا بك .. تكلم .. ألا تحبنى) كلمات كلمات قال : (أنت تتكلمين) قالت (أنت تحيرنى) وابتعدت عنه وغادرت السرير وفتحت الباب المغلق وإتجهت الى اليسار ، وفتح الباب ودخلت زكية الحمام ..

وسألته الوجوه فى الوزارة (ماذا فعلت) فسكت فأحاطوا به وتطايرت الكلمات من حوله ، فأطرق برأسه فهللوا ومدوا أيديهم يصافحونه وقالوا (أنت بطل)

وجاءت أمه وجاءت أم زكية وجاء الأقارب ، كلهم باسمون ، كلهم

يتكلمون ويصافحون وأجسادهم تهتز ورءوسهم لا تهدأ ، أما زكية فكانت تطلق الأصوات من الراديو وتضع خدها على يدها وتتنهد .. وأحيانا تبكى فإذا جاء الليل اندست تحت اللحاف . واقتربت منه وهو مستلق على ظهره وقد اختلطت الأشياء لا يدرى إذا ما كان راقدا على السرير أم على الراديو ، لا يدرى إذا ما كان راقدا أم غير راقد .. ثم تتحرك قدراته تلك الحروف التى يجيد التحول اليها (ب) فى شفتيه . و (س) فى أطرافه و (ص) فى كفه وإذا بالكلمات تذوب وكل شئ يستقر فى مكان ويوشك أن ينام لولا أن زكية تلقى بكلماتها (أتحبنى .. أحبك .. ماذا بك .. تكلم .. ألا تحبنى) فلا يجيب بأكثر من أنت تتكلمين ، وتنهض زكية وتفتح الباب المغلق وتدخل الحمام وينام .

ولقد أصبح الامر مألوفا عند (غ) رغم الاختلافات غير الجوهرية التى قد تحدث بين حين وآخر مثلما يحدث عندما يعود إلى زكيه ومعه مرتبه ويسلمه لها فتحتضنه وتقول (سأشترى فستانا) ثم تقول (أحبك) أو يركبان القطار إلى الإسكندرية وعندما يطلان من نافذة البيت على البحر والظلام تلصق زكية خدها بخده وتقول (أحبك) وأحيانا تقول زكية فى وضح النهار (ألا تحبنى) ثم تهزه من كتفه وتطلب منه أن يقول . وعندئذ ينظر الى شفتيها يرقب المكان الذى خرجت منه الكلمة ويفتح فمه فلا تخرج منه كلمة . وتفتح هى فمها وتقول (أنت تكرهنى) وتضيق عيناها ويستطيل وجهها وترتعش شفتاها ، وذات مرة كان مستلقيا على مقعده فى شرفة البيت وأمامه نوافذ وملابس وسماء وأسلاك وطيور وسحب وقالت زكية هامسة (لا احتمل الحياة مع إنسان بغير حب) وكانت الكلمات لا تستقر طويلا حوله ، إذ سرعان ما

تطير مرتفعة إلى السحاب ، ثم همست زكية (ولكنى واثقة انك تحبنى وأنا راضية بك رغم ما تظهره لى لأننى أعرفك في الليل وأعرف أنك تحبنى) فقال (غ) هذه الملابس مرصوصة ثم سكت برهة وعاد يقول : (فى الصباح أجلس أمام المكتب وأمسك بالكشف و أكتب الأرقام وأكتب الأسماء و أكتب المهن و فى نهاية الكشف أوقع باسمى على اليمين واترك مساحة علي الشمال يوقعها المدير بقلم أحمر ، ثم سكت برهة واستمر يقول (آخر سحابة لونها احمر ولكنه ليس نفس لون قلم المدير) قالت زكية (ها أنت تتكلم وهذه أعجوبة) فقال (غ) المدير يتكلم معى وأنا أتكلم معه .. وكلهم يتكلممون معى وأنا أتكلم معهم) فقالت زكية (وأنا .. لماذا لا تتكلم معى) فمد يده وقبض على ذراعها وفتح فمه فلم تخرج الكلمات وكان وجهه يقول (أريد أن أصارحك .. سوف أقول لك كل شئ) ولكنه لم يصارحها بذلك بل إنه لم يدرك أن وجهه يقول شيئا .. وربما زكية هى التى توهمت أنه سوف يصارحها فسارت معه داخل البيت وقد بدأت عتمة الغروب تتسلل إليه وشعا ع من وهج الشمس ينفذ في العتمة ولا يضيئها حتى دخلا حجرة النوم . فامتدت يده إلى الباب وأغلقته ووقفت زكيه تسأله بعينيها ماذا ينوى ؟ ماذا يريد أن يقول ؟ فجذبها (غ) إلى صدره والتقت شفاههما وجلسا متجاورين على حافة السرير ، ودفن رأسه فى صدرها قالت وهى تمسح بيدها على شعره (عندما تزوجتك كان كل شئ غير واضح بالنسبة لى ولكنه كان واضحا بالنسبة لأمى وأهلى إذ كانوا يعلمون ما هو الزواج ويعلمون ما هو البيت والأولاد وإعداد الطعام وكانوا جميعا يتكلمون عن معرفة وتجربة وكنت أنصت إليهم وأصدقهم وأنا لا أدرى بالضبط ما هو الذى أنصت إليه وأصدقه

وتوقعت أن أعرف منك ما فاتنى قلت سوف تأتينى أيامى معك بما يعزز كلامهم ويوضحه ولكنك فاجأتنى بأشياء حيرتنى وأربكتنى فقالت لى أمى (الرجل له طلبات يجب أن تلبيها . وسوف يطلب الراحة فوفرى له الراحة وسوف يطلب جسدك لأنه حلال له والله أذن له بأن يحصل على جسدك فنظفيه وانزعى منه الشعر وعطريه واحفظيه دافئا طريا ولقد بهرنى هذا الكلام وصدقته .. وهأنذا أعد لك طعامك وأوفر لك راحتك وأقدم لك جسدى وأنت تأكل وتستريح وتحصل على وأنا سعيدة بكل هذا ولكنك تحزننى لأنك لا تطلب ما أقدمه لك .. تحصل عليه ولا تطلبه.. كأنك لا تريد منى شيئا لو لم أسع إليك لما سعيت إلى .. ألست بحاجة إلى ؟ لماذا لا تكترث للفهم ولا للكلام) ؟

كانت الكلمات كثيرة ووجهها قريب والعتمة تزداد وشعاع الشمس يخبو فاقترب منها حتى أغلق الشفتين بشفتيه فلم تعد تخرج الكلمات أو لعلها تخرج الآن غير مسموعة من جوفها إلى جوفه . فقد كان جسده يتسع كأنه فضاء امتلأ بكل الرجال وامتلأ بكل الحيوانات . والبقر والجاموس والحمير والكلاب والقطط والأفيال والأسود والنمور .. وانطلقت طيور ترفرف بأجنحتها تنشرها فى الهواء وتعلو فوق الرياح وكان فى فضاء جسده حقول سنابل قمح وبرسيم وترع ومساقى وأكواخ ودور وطرق وكان فى جسده قطار يدمدم وقضبان حديدية وبيوت وأشجار تجرى . وكان فى جسده أطفال صبيان وبنات . وكان فى جسده صلوات الفجر والظهر والعصر والمغرب والعشاء ومآذن وأذان .. وكان فى جسد زكية مثل هذا كله وكانت تهمس (أنت تملكنى) ، وكانت تهمس (أنت رجالى) وكانت تهمس (أنا نساؤك) ثم ودعت السرير والسقف والمرآة

وغابت فى نشوة وكان وجه (غ) يتلون ويتغير وكأنه كل الوجوه ، كل ما يمكن أن تكون عليه الوجوه سواء وجوه الرجال أو النساء . وجوه الأطفال أو العجائز وجوه الأحياء أو الموتى ، الوجوه اليقظانة أو الوجوه الشاردة . الوجوه النشيطة أو الخاملة ومع ذلك كان من المستحيل تحديد ملامح وجه بالذات حتى وجهه هو قد اختفى واتسع فضاء جسده للمدينة ولكل المدن ، للقرية ولكل القرى .. واتسع للسماء وكل السموات وقد تذكر أشياء كثيرة أو هكذا خيل إليه لأن ما تذكره لم يتحدد أبدا فى مخيلته وإن كان يبدو أنه تذكر وجه أبيه وبطن أمه وهو جنين قابع فيه وتذكر ضحكات ونظرات وخطوات وقفزات .. وكأن هناك طعاما شهيا وطعاما مرا وكلمات غير واضحة وخفقات قلب وخفقات دنيا . لعل الكلمات التى خيل إليه أنه يتذكرها هى كلمات السلام .

هل كانت زكية تستطيع أن تواجه كل هذا ، كادت تموت ، وكانت راغبة فى هذا الموت ، كان (غ) يصرعها ، جسده ينفذ من جسدها ، يقتحمه فتتدفق فى رحابها حياة لا حدود لها وفتحت عينيها قبل أن تموت ، قبل أن تغيب فى عالم النشوة فلا تعود منه ورأت وجهه فلم تفهم وأغمضت عينيها وفتحتهما فكأنها لا تغمضهما ولا تفتحهما . حتى انتفضت فكأنها أسلمت الروح ولما فطنت إلى أنها ما زالت حية حبست أنفاسها ، كانت لا تقوى على الحركة ولا تدرى أن هناك كلمات .

ولم تعد زكيه تسأله اذا ما كان يحبها أم لا فالسؤال لا معنى له . وأن كانت تقف أحيانا أمام المرآة تمشط شعرها وتعقد شريطا أزرق بضفيرتها ثم تقفز مرحة حوله وتقول : (قل أنا أحبك) فيقول (أنا أحبك) فتقبله وهى تشعر أنها تلهو .

وقال (غ) ذات ليلة إنه يسستيقظ فى الفجر لأن عربة الوزارة ستأتى وتذهب به إلى المطار وفى الخامسة صباحا دق جرس المنبه فاستيقظت زكية وظل (غ)نائما قالت زكية وهى تدفعه برفق (قم . هذا موعدك) وعندئذ قال (غ) وكأنه يحلم وعيناه مغمضتان (أنا أنام وأستيقظ وآكل وأشرب وأخلع ملابس وأرتدى ملابس وأخرج وأعود وأكتب الأرقام والأسماء وأكتب اسمى على اليمين . وأدخل حجرة المدير وأخرج من حجرة المدير وأركب الترام وهذا كله يجب أن أحفظه وأذكره كى أنجح فى الامتحان وأنا أحفظ الكلمات .. وأنا أحفظ الكلمات) وجعل يكرر (أنا أحفظ الكلمات) حتى عاوده النعاس وشفتاه تتمتمان كأنه ما زال يتكلم قالت زكية وهى تلصق وجهها بخده وأنا أفهمك ياحبيبى فلأى سبب نخرج من نشوتنا .. وما المبرر لأن تبذل الجهد فى غيرها أنت تقضى ساعات عذاب وإرهاق ، ساعات سخف تتبدد فيها الحياة . ساعات لا تليق بك تشغل فيها نفسك بأشياء لا تليق بك لأنها تبعدك عنى وتبعدنى عنك ، وعانقته زكية وفكرت لو أنها قادرة على أن تضمه الى جسدها فلا يفترقا حتى الموت . ثم فكرت فى أن مثل هذا الموقف شئ رائع وحقيقى . فما معنى أن تتركه يصرعها بالنشوة ثم لا تواصل رحلتها معه حتى الموت . فالذروة التى تبلغها تنطفئ لتفتح عينيها على سخف .

فلما استيقظ قالت له (لا تذهب) قال (لا أذهب) قالت (ولكنهم سوف يأتون بالعربة) قال (سوف يأتون) قالت زكية (وتذهب إلى المطار) قال (واذهب إلى المطار) قالت (أنت لا تريد أن تذهب) فسكت ، قالت (تكلم) فقال (سوف يأتون بالعربة وأذهب إلى المطار) وقام وارتدى ملابسه وأطلقت العربة نفيرها وهبط وذهب إلى المطار.

وعاد لتقول له زكية : أريد أن أحمل منك ، وفى الليل قالت له : هذه الليلة حملت منك ، فرأى أنها حملت الكثير وكان يسير فى دنيا حملها فيقرأ السلام لكل ما يراه وفى الصباح كان يسعل وانتابته حمى وكان جسده يرتعد وجاء طبيب وضع كفه على جبينه وأدخل فى فمه أنبوبة ورفع الغطاء وعرى صدره ونقر عليه وعرى بطنه وتحسسها ثم نقر على ظهره ولوى ذراعه وقدميه وقال (هذا برد) وقالت زكية (لقد خرج مع الفجر) قال (غ) متمتما (أخذت منى .. أخذت منى) ولم يكمل ولكنه عاد يكرر بين وقت وآخر أخذت منى ، أخذت منى ، وزكية تسأله أهى الحمى وتسأله ما الذى أخذته وكانت حركته ثقيلة ووجهه ملتهب والدموع فى عينيه والمخاط فى أنفه والسعال يخنقه وكانت يد زكية تهبط على صدره فلا تصل إليه والسرير تحت جسده وجسده لا يصل إلى السرير والحجرة حوله ولكنه ليس فى الحجرة وكان كل ما يراه الحجرة والسرير وزكية وأطراف جسده لا تصل إليه وكان جسد زكية ينمو والأكل يدخل فمها والحجرة والسرير تدخل جوفها حتى صرخت وهى فى الحمام وقالت (الدم) .

وأفاق (غ) من الحمي وسقط حمل زكية وقالت زكية مرضك أجهدنى وأسقط حملى .. كان يجب أن استريح ولكنك لم ترحمنى وقال (غ) أخذت منك .. وقالت زكية ماذا أخذت قال (غ) أخذت .. قالت زكية نم أنت أخذت كل شئ .. قال (غ) نعم أخذت كل شئ ..

وكانت زكية تصرخ أحيانا فى وجهه (ابعد عنى . خلصنى الله منك) فيبدو وجهها أكثر احمرارا ويداها تلوحان فى الهواء وتجرى من حجرة النوم فتغلقها ويمشى (غ) حتى الباب المغلق ويحاول فتحه فلا

ينفتح فيعود إلى مقعد يجلس عليه أو شرفة يقف فيها ويمضى وقت طويل فإذا كان ليلا ظهرت أنوار فى البيوت تنطفئ حتى يسود الظلام ويسمع (غ) خطوات زكية حتى تقف خلفه وتجذبه من يده .. وفى السرير تسأله أتحبنى وفى الصباح تأتى له بطعامه وتتزين وتتعطر وتضحك ..

وتمضى أيام قبل أن يعاودها الصراخ واحمرار الوجه والتلويح باليدين فى الهواء وإغلاق الباب ..

غير أن زكية توقفت عن كل هذا وبدأت تكثر من تأمل (غ) الذى كان يرى عيونها فى كل مكان من البيت أو هكذا خيل إليه .. فأينما كان تلمس نظراته عينيها ووجهها يستطيل لا يكاد يتحرك وأحيانا تبقى عيناه داخل عينيها .. كأن العيون تشابكت .. وذات صباح أمسكت زكية بذراعه وأحكمت رباط عنقه وقالت : (قبلنى) وقربت شفتيها من شفتيه فألصق شفتيه بشفتيها وهمست زكية (سأعرف كيف أهزمك .. أنت لا تدرى ما الذى أعنيه .. لعلك تظن أنك غلبتنى على أمرى وأنى مهما قلت ومهما ثرت فلا بد أن استسلم لك فى آخر النهار وكأنك وحدك القادر على منحى الحياة) وأطرقت زكية برأسها فبدا مفرق شعرها ثم رفعت رأسها فبدا أنفها فوق عينيها فوقهما حاجباها ولم يظهر شئ فوق شعرها .. وقالت (نعم أنت قادر على منحى الحياة لا انكر هذا .ولكن المنح لن يتم حتى تنتقل الحياة منك إلى بطنى) ورفعت صوتها وشفتاها تنفرجان وعيناها تومضان ما أجمل الكلام معك . هأنذى أفصح عن نفسى بلا خجل وأخرج ما فى جوفى من أسرار وأكشف عورتى بلا حياء .. سأحضنك .وسأجعل منك إنسانا .. سوف أضعف دنياك .. سوف أخمد قواك لأنى أريد أن أحصل منك

على البذرة .. لن أسمح لك بان تعطينى الكلّ ، لأن بطنى لا تتحمله .. ولأنك تسترده) .

وطـوقت عنقه بذراعيها وقالت هامسة (قل ياحبيبتى) قال (ياحبيبتى) قالت قل ياملاكى قال ياملاكى قالت قل يادنياى قال (يادنياى) قالت زكيه (سوف أعلمك أسمائى كلها ، وسوف أجعلك تحفظها وترددها .. وسوف أدثرك بها حتى لا يبقى منك سوى ما تحفظه وترده .. حتى يختفى هذا الخمول الذى نعيش فيه ، حتى ينطق عجزك وتتخرس قدراتك) ، قال غ (حتى ينطق عجزى وتتخرس قدراتى) قالت زكية (وحتى تحمل منى وأحمل منك) .

ملحوظة :

وبهذه النهاية الغامضة التى تعودنا الكثير منها يترك الكاتب موضوع زواج الغبى ولا يذكر عن حمل زكية شيئا إلا بعد صفحات كثيرة ولم يفسر لنا الكاتب ما الذى دفع (غ) إلى الذهاب إلى المطار ولعله يستقبل أو يودع أحدا من موظفى الدولة ... ولكن الغريب أن الصفحات القادمة تبدأ و (غ) راكب الطائرة مسافرا إلى نيويورك .



الفصل الثالث عشر

كانت الطائرة تخترق السحب ، وهدير المحركات قد تحول إلى طنين هادئ والركاب صامتون ما عدا (غ) الذى ارتفع صوته كصليل معادن ترتطم ببعضها البعض والراكب العجوز الذى يجلس إلى جواره يتلفت مذعورا بائسا . وقد أحاط به الصليل فلا منجاة له .

كان (غ) يقول :

درست كل هذا بعناية أؤكد لك أن الاحصائيات دقيقة لقد وقع الحادث الأخير منذ أسبوع واحد ، قال لى موظف الشركة إن عدد القتلى أربعة وخمسون وصحيفة الأهرام كتبت انهم ثلاثة وخمسون فى الصفحة الأولى من أسفل بجوار الإعلان عن كتاب النهايات السعيدة ، تأليف بول مارتان وترجمة عبد العزيز حمدان ..

وقالت زوجتى لا تسافر بالطائرة .. وقلت لموظف الشركة زوجتى تقول لا تسافر بالطائرة .. وقال موظف الشركة إن الإحصائيات الدقيقة تؤكد أن الحوادث لا تتكرر فى نفس الشركة خلال أسبوع واحد وقال لى هل أنت خائف ، قلت له الخوف انفعال وهذا صحيح لأنى قرأت فى كتاب علم النفس تأليف مصطفى رأفت ، الفصل الرابع صفحة سبعة وستون . الخوف انفعال ينتهى بشعور الخائف بالحماية . والشعور بالحماية غريزى فإذا تعرضت الغريزة للخطر ظهر الانفعال كل هذا

وضعت تحته خطا بالقلم الأحمر .. أنا استعمل القلم الأحمرلوضع الخطوط تحت الكلمات والقلم الأزرق لوضع الأرقام والقلم الأخضر لكتابة بعض كلمات على الهامش .. عند زوجتى قلم أحمر شفاه وسوف اشترى لها أقلاما من نيويورك . عندى القائمة فى الحقيبة . كتبت لى ما سوف اشتريه

نهض الرجل العجوز وقال :

– بعد إذنك

قال الغبى :

– إن معى النقود الكافية . محولة إلى بنك يونيفرسال بنيويورك

وكان العجوز قد ابتعد متجها إلى دورة المياه قال (غ) مخاطبا نفسه : الآن يجب أن أتكلم بصوت غير مسموع لأن الكلام بصوت مسموع لا يتفق إلا مع وجود أحد يسمعنى .

وزم شفتيه . قالت لى زكية أرسل لى خطابا كل يوم . ووضعت الأوراق فى الحقيبة .. ووضعت القلم فى جيبى وقالت اشتر لابنك ملابس شتوية وقال عادل أنت مسافر يا بابا .. وقال حسنين البواب مع السلامة وقال سائق التاكس ثلاثة وتسعون قرشا وقال موظف الشركة احتفظ بحقيبة اليد معك . وقال موظف الجمرك افتح الحقيبة وقالت المضيفة نحن الآن على ارتفاع عشرين ألف قدم لماذا لا أضع خطا بالقلم الأحمر تحت كلمة قدم . قدم . قدم . قدم . أصابع قدمى . خمسة أصابع وقدم يمين وخمسة أصابع وقدم شمال قال موظف الشركة هل أنت خائف ؟ كلمة قدم من ثلاثة حروف وكلمة أصابع أ ص . ا ب . ع خمسة حروف كلمة خائف خ . أ . همزة على ياء ف أربعة حروف

لا خمسة حروف هل من حرفين أنت من ثلاثة حروف ٢ . ٣ . ٤ ، ٢ + ٣ = ٥ ، ٥ + ٤ = ٩ ، هل أنت حقا خائف تسعة تسعة تساوى ثلاثة حروف..

وظهر الراكب العجوز وهو يجلس بجوار (غ) :

الآن أتكلم بصوت مسموع .. ويسمعنى ..

– اسمع يا سيدى .. كننت أقول لك إن الإحصائيات مؤكدة ..

قال العجوز مقاطعا :

– لا تؤاخذنى يا أستاذ .. أريد أن أنام ..

وأشاح العجوز برأسه .. وأغمض عينيه قال (غ) مخاطبا نفسه : الآن أتكلم بصوت غير مسموع .. قلت لزكية أحبك .. أحبك .. أربعة حروف .. وقلت لعادل أحبك .. أحبك زكية وعادل فقط .. أحفظ هذا جيدا .. زكية وعادل فقط هذا الرجل العجوز المغمض العينين لا أقول له أحبك .. شعر رأسه أبيض .. وجهه مكرمش ..

والتفت (غ) إلى الناحية الأخرى فوقعت عيناه على زجاج النافذة، خلفها فضاء ، ولصق جبهته بالزجاج ولصق رموش عينيه بالزجاج وحك رموش عينيه ومط شفتيه ملامسا الزجاج وقبله .. وعاد والتفت إلى الرجل العجوز... ما زال نائما .. واقترب بشفتيه حتي أوشك أن يقبل شعره أو رقبته .. فاعتراه ما يشبه الدوار .. وسمع الكلمات تتردد فى رأسه لا .. لا .. لا تفعل هذا .. وانكمش فى مقعده .. كان يسمع صوت زكية ، وكان يرى خطا أحمر يشق الفضاء وفوق الخط الأحمر رجل عجوز يقف فى الطريق مادا يده اليمنى .. ويده اليسرى تمسك بعصا ، وكان للرجل عينان مفتوحتان .. وخلفه جذع شجرة وفوقه أغصان وأوراق خضراء .. وكانت زكية تسير أمامه تدفع عربة تحمل (عادل) ..

وقال الرجل ذو العينين المفتوحتين : « بارك الله في ولدكما » .. ووصلت الكلمات الى أذن (غ) واندفعت داخله تحركه نحو اليد الممدودة فأمسك بها ، ولما شعر بلمسها انحنى عليها يقبلها ، وسحب الرجل العجوز يده وصرخ ، وصرخت زكية وقالت : « لا تفعل هذا » .. وقالت : « أنت مجنون » .. وقالت : « ألا تعلم » .. وقالت : « عد بنا إلى البيت » .. وقالت : « اغسل شفتيك بالماء والصابون » . ولقد وضع تحت كل هذا خطا أحمر .. أو خطوطا حمراء . ورأى (غ) الخطوط الحمراء تتكاثر تحت كلمات وتحت صور .. وتحت وجوه .. ورأى الخطوط تتشابك فعاد ينظر إلى زجاج النافذة . خلفها فضاء . فرأى خمس أصابع في قدم تملأ الفضاء . ورأى في نهاية القدم ساقا تخترق السحب وتمتد حتى تصل إلي مزارع في الأرض .. وعلم أن هذه هي ساق هنداوي وأنه نائم في الحقل بين السنابل يلعب ويتمرغ .. ولأمر ما رفع هنداوي قدمه فاخترقت السحب واخترقت الخطوط الحمراء . وكانت الأصابع موزعة بين الشمال والجنوب والشرق والغرب . وكان الاصبع الخامس وهو أكبرها متجها إلى فوق . وكان السحاب يتفرق في المؤاضع التى تنفذ منها الاصابع أما بقية القدم فقد غمرها السحاب .

وسمع (غ) صوت الرجل العجوز يسأل المضيفة :

- متى نصل ؟

وكانت المضيفة تقف فوق رأس العجوز وتقول :

- بعد ربع ساعة ..

قال (غ) وهو ينظر في ساعته :

- الساعة الآن العاشرة والربع وبعد ربع ساعة تكون العاشرة

والنصف ونحن الآن فوق الولايات المتحدة الامريكية .. وعاصمتها واشنطن .. قال العجوز :

- أذاهب أنت إلى واشنطن ؟

قال (غ) :

- أنا ذاهب إلى نيويورك ..

قال العجوز :

- سأستمر في هذه الطائرة حتى واشنطن .

قال (غ) :

- الطائرة تنقل الركاب إلى كل مكان ..

قال العجوز :

- ما الذى تعنيه بالضبط ؟ ..

قال (غ) :

- أعنى أن الطائرة وسيلة من وسائل النقل الحديث ..

قال العجوز :

- أنا أعلم هذا جيدا .. فلماذا تقوله لى ؟

قال (غ) :

- أنا أكلمك ..

قال العجوز :

- ولكن طريقتك فى الكلام غريبة ..

قال (غ) :

– أنا أتكلم مثل بقية الناس .. والكلام الغريب هو الكلام الذى لا تفهمه .. وأنا أقول لك كلاما مفهوما ولقد سمعته من قبل وقرأته وكنت أنت تعرف أن الطائرة وسيلة من وسائل النقل الحديث ..

قال العجوز :

– أتسخر منى ؟ ..

قال (غ) :

– أنا لا أسخر منك لأنى تعلمت الأدب فى الكلام وتعلمت أن السخرية قلة أدب ..

قال العجوز :

– أنت قليل الأدب ..

قال (غ) :

– بعد هذا قل آسف ..

وحدق العجوز فى وجه الغبى وهمس :

–آسف ..

قال (غ) :

– ثم نصبح أصدقاء .. أنت الآن صديقى وأنا صديقك ، وعندما نتقابل نتصافح ونبتسم ونتكلم .

قال العجوز :

– علي أى حال يجب أن أعترف لك بأنك رجل غريب .. أقولها بصراحة ولا تغضب منى ..

قال (غ) :

– الغضب انفعال كما يقول علم النفس ..

قال العجوز :

– ألا تغضب أبدا ؟

قال (غ) :

– نعم أنا أعرف هذه الكلمة ..

قال العجوز :

– أنا لا أقصد هذه الكلمة .. أقصد نفسك .. هأنذا قد غضبت منك .. وقلت لك إنك قليل الأدب .. ومع ذلك لم تغضب أنت .. ولقد أسرتني بهذا .. واضطررتني للاعتذار لك ..

قال (غ) :

– كثيرون يعتذرون لي ..

قال العجوز :

– وأنت لا تغضب ؟ ..

قال (غ) :

– قلت لك .. أنا أعرف الكلمة ..

قال العجوز :

– لا يهم الكلمة .. المهم هو شعورك .. احساسك .. انفعالك ..

قال (غ) :

– أنا أعرف كل هذه الكلمات ..

قال العجوز :

- إذن فأنت لا تشعر بشئ ..

قال (غ) :

- أنا أشعر ..

قال العجوز :

- بماذا ؟

قال (غ) :

- الشعور له حالات متعددة . . ولقد جاء في كتاب ...

قال العجوز مقاطعا :

- أنا أعرف كل هذا ..

قال (غ) :

- أنت مؤلف الكتاب ؟

قال العجوز :

- لا .. ولكنى مهتم بك .. هل تستطيع أن تقول لى ما الذى تشعر به نحوى ؟

قال (غ) :

- أنا ؟ ..

قال العجوز :

- نعم أنت ..

قال (غ) :

- أنا ؟ ..

قال العجوز :

- بغير كلمات ..

قال (غ) :

- بغير كلمات .. أنت تريد منى أن أسكت ..

قال العجوز :

- لو سكت .. ماذا تقول لنفسك ؟

قال (غ) :

- أقول ما سمعته وقرأته ..

قال العجوز :

- ولو سكت عما سمعته وما قرأته .. فماذا يبقى ؟

قال (غ) :

- يبقى كل شئ ..

قال العجوز :

- ما هو ؟

قال (غ)

- كل شئ ..

قال العجوز :

- قل .. قل هذا الكل شئ ..

قال (غ) :

- إنه كل شئ ..

قال العجوز :

- كيف عرفت أنه كل شئ ؟

قال (غ) :

- أنا لم أعرفه ..

قال العجوز :

- لماذا تقول كل شئ ؟

قال (غ) :

- هذا سؤال ..

قال العجوز :

- نعم إنه سؤال ..

قال (غ) :

- والسؤال يحتاج إلى جواب ..

قال العجوز :

- وأنا أنتظر الجواب ..

قال (غ) :

- مثل الامتحان ..

قال العجوز :

- ليكن .

قال (غ) :

- إذا لم أعرف سقطت فى الامتحان ..

قال العجوز :

- لابد أن هناك جوابا ..

قال (غ) :

- أنت تعرف الجواب ..

قال العجوز :

- أريد جوابك أنت ..

قال (غ) :

- ما تقوله أنت .. أقوله أنا ..

قال العجوز :

- أى شئ ..

قال (غ)

- أى شئ ..

قال العجوز :

- سمك ..

قال (غ) :

- سمك ..

قال العجوز :

- بصل ..

قال (غ) :

- بصل ..

قال العجوز :

- فوضى ..

قال (غ) :

- فوضى ..

قال العجوز :

- نظام ..

قال (غ) :

- نظام ..

قال العجوز :

- حب ..

قال (غ) :

- حب ..

قال العجوز ..

- حقد ..

قال (غ) :

- حقد ..

قال العجوز :

- نجوم ..

قال (غ) :

- نجوم ..

قال العجوز :

- بطيخ ..

قال (غ) :

- بطيخ ..

قال العجوز :

- كرة ..

قال (غ) :

- كرة ..

قال العجوز :

- منديل ..

قال (غ) :

- منديل

قال العجوز :

- برسيم ..

قال (غ) :

- برسيم ..

قال العجوز :

- جحش ..

قال (غ) :

- جحش ..

قال العجوز :

- ضفدعة ..

قال (غ) :

- ضفدعة ..

قال العجوز :

- عذراء ..

قال (غ) :

- عذراء ..

قال العجوز :

- حمامة .

قال (غ) :

- حمامة ..

قال العجوز :

- حياة ..

قال (غ) :

- حياة ..

قال العجوز :

- دين ..

قال (غ) :

- دين ..

قال العجوز :

- مسبحة ..

قال (غ) :

- مسبحة ..

قال العجوز :

- ملائكة ..

قال (غ) :

- ملائكة ..

قال العجوز :

– شيطان ..

قال (غ) :

– شيطان ..

قال العجوز :

– لا تردد كلماتى

قال (غ)

– لا تردد كلماتى ..

قال العجوز :

– أرجوك ..

قال (غ) :

– أرجوك ..

قال العجوز :

– أنت لا تفهمنى ..

قال (غ) :

– أنت لا تفهمنى ..

قال العجوز :

– كف عن هذا ..

قال (غ) :

– كف عن هذا ..

قال العجوز :

– هذا مستحيل ..

قال (غ) :

– هذا مستحيل ..

قال العجوز :

– هذا مضحك ..

قال (غ) :

– هذا مضحك ..

قال العجوز :

– كيف أسكتك ..

قال (غ) :

– كيف أسكتك ..

قال العجوز :

– هذا جنون ..

قال (غ) :

– هذا جنون ..

قال العجوز :

– يئست ..

قال (غ) :

– يئست ..

قال العجوز :

– هذا هو كل شئ ..

قال (غ) :

– هذا هو كل شئ ..

قال العجوز :

– ما الذى تريده ..

قال (غ) :

– ما الذى تريده ..

قال العجوز :

– أعتذر لك ..

قال (غ) :

– أعتذر لك ..

وسكت العجوز .. فسكت (غ) وكانت المضيفة تعلن أن الطائرة تهبط فى المطار وعقد (غ) الحزام الجلدى حول خصره حتى استقرت الطائرة على الأرض .

قال العجوز :

– وصلنا ..

قال (غ)

– وصلنا . .



الفصل الرابع عشر

أطل (غ) من نافذة حجرته بالفندق .. فرأى فناء مربعا تحيط به المبانى من كل جانب ورأى نوافذ كثيرة فصعد ببصره فرأى نوافذ ونوافذ وظل يصعد ببصره ليرى نوافذ ونوافذ فاستدار وذهب إلى منضدة وأمسك بورقة وقرأ ...

جدول أعمال اليوم

الزمان : الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة والعشرون ..

المكان : حجرة الفندق

العمل تناول الإفطار المكون من قهوة ولبن .. وبيض مقلى وعصير برتقال وخبز مقدد ..

ونظر (غ) فى ساعة معصمه وعقرب الدقائق يقترب فلما وصل العقرب إلى الخامسة والعشرين دق الباب وفتح ودخلت القهوة واللبن والبيض وعصير البرتقال . ودخل معها أشياء ليست فى جدول الأعمال صينية وأكواب وصحون وإنسان .

قال الإنسان : (صباح الخير ياسيدى)

وقال غ : (صباح الخير ياسيدى) .

ووقف الإنسان ينظر إلى (غ)

قال غ : جدول الأعمال يقول هذا موعد الإفطار .

قال الإنسان : نعم ولكنك مدين لى بشئ .

قال غ : جدول الأعمال ؟

قال الانسان : نقود

قال غ : معى نقود

قال الإنسان : أين نقودك ؟

فأخرج (غ) نقودا كثيرة من جيبه وقال : ها هى نقودى فتقدم الإنسان منه وأخذ قطعة نقود وقال : هذا يكفى وخرج مسرعا .

وقرأها وقال مخاطبا نفسه «لم يكتبوا كل شئ »

وكان جدول الأعمال يقول

الزمان : الساعة الثامنة والخمسون

المكان : أمام باب الفندق

العمل : ركوب السيارة مع مستر (بلنت)

وخرج من حجرته ومشى فى دهليز مضاء بالكهرباء وفى يده ورقة جدول الأعمال ورأى رجلا قادما فقال (غ) : باب الفندق ولم يقف الرجل ومضى فى طريقه ومشى (غ) حتى وصل إلى نهاية الدهليز فرأى حائطا أمامه ومقاعد ومنضدة طويلة فوقها أوراق ومطفأة نحاسية صفراء وجدران رمادية وستائر زرقاء ونافذة أطل منها فرأى الفناء المربع وصعد ببصره فرأى نوافذ نوافذ واستدار ببطء ، وعاد فى الدهليز . وكانت أبواب كثيرة على يمينه وجدار رمادي على شماله به باب صغير عليه لافتة زجاجية مكتوب عليها مصعد . قال (غ) : هنا أهبط إلى باب الفندق .. هنا أصعد وأهبط . ورأى رجلا وامرأة يتقدمان نحوه فلما وصلا إليه قال الرجل : أين حمام السباحة ؟ قال (غ) : لم يكتبوا

الحمام فى الورقة . قال الرجل : هذا تقصير شديد . قالت المرأة : إنه فوق . وقال الرجل مخاطبا (غ) : إننا من كاليفورنيا هل أنت من نيويورك .

قال (غ) : أنا من حجرة فى الطابق السابع فى فندق نيويورك

قالت المرأة هذه إجابة ذكية فلا أتصور أحدا من نيويورك .

وفتح باب المصعد وأطل وجه صبى وقال : فوق ، فدخل الرجل والمرأة ودخل وراءهما (غ) قال الرجل أنت صاعد إلى الحمام قال (غ) أنا هابط إلى باب الفندق . قال الرجل : أنت صاعد إلى الحمام قال (غ) أنا هابط إلى باب الفندق . قال الرجل : أنت عاقل ياسيدى فهذا يوفر الوقت . والتفت الرجل إلى المرأة وقال : يجب أن نفعل هذا ياعزيزتى لنوفر الانتظار اللعين لنصعد لنهبط المهم هو أن نركب المصعد .

قال (غ) : أنا أصعد لأهبط وأهبط لأصعد .

فلما هبط (غ) ذهب إلى باب الفندق فرأى أشياء بيضاء كثيرة تهبط . وكان الناس مزدحمين داخل الباب أما هو فخرج وقد أمسك بورقة جدول الأعمال ووقف والأشياء البيضاء تتراكم على رأسه ومعطفه ورأى وجها يتقدم منه وللوجه جسد طويل وذراع ممدودة أمسكت بذراعه وجذبته وقال الوجه : ألا تشعر ببرد ؟ قال (غ) : برد . قال الوجه ظننت أنكم لا تحتملونه . قال (غ) : أنا أعرف البرد وهذا الشئ الأبيض ثلج وهو يهبط من السماء فى بلادكم فى فصل الشتاء .. ولقد ارتديت المعطف لأنى أعلم عاداتكم .

وكان الوجه قد جذبه حتى وصلا إلى عربة فدخلا وانطلقت بهما .

قال (غ) : أنت مستر بلنت . فقال الوجه : نعم . قال (غ) : وجهك ..

فقال الوجه : ماذا . قال (غ) انت لك وجه . قال الوجه : هذه ملاحظة دقيقة ياسيدى أن وجهى هو السبب فى تعيينى بالعلاقات العامة . اختارونى من بين سبعمائة وستة وتسعين وجها .. ولكن ما الذى يميز وجهى فى نظرك أرجوك أن تخبرنى فقد أستفيد من ملاحظتك فائدة كبرى وربما حصلت على علاوة :

قال (غ) : هذا الصباح رأيت نوافذ كثيرة ورأيت دهليزا ، ورأيت رجلا وامرأة من كاليفورنيا ورأيت رجلا لا يتكلم ثم رأيت وجهك وبعد ذلك رأيت جسمك الطويل . قال الوجه : فهمت . أنك بارع حقا ياسيدى فالإنسان به مناطق كثيرة . أكتاف وقوام وسيقان وأقدام وشعر ووجه ، وأحيانا يلفت نظرنا الكتف أو القدم أنا شخصيا أنظر أولا إلى سيقان المرأة . وأقول هذه سيقان . والمهم بالنسبة لرجل العلاقات العامة أن نقول عنه هذا وجه - هذا كلام بالغ الأهمية . وسأدونه فى تقريرى . أرجو أن تكون قد تناولت فطورا طيبا .. قال (غ) : فى الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة والعشرين . قال الوجه : سيدى دقيق جدا فى مواعيده وهذا سوف يسهل أعمالنا . قال (غ) : جاء مع الافطار رجل وطلب نقودا وجاء مع الإفطار صينية و أكواب وصحون ، وسألنى رجل قادم من كاليفورنيا عن حمام السباحة . قال الوجه : أعتذر لك ياسيدى هذا تقصير لا شك فيه وكان يجب أن أشرح لك كل هذا حتى لا تتعرض لارتباك أو مضايقات من أى نوع .إنى أكرر اعتذارى فمن عادة الخدم أن يحصلوا على بقشيش ويطالبون به بوقاحة ولكن ربع دولار يكفى . أما الصينية والأكواب والصحون فهى لا تعنى شيئا وهى تربكنى أنا أيضا فى الفنادق إذ من عاداتهم التهويل فى تقديم هذه الأشياء . أما عن حمام السباحة فهو خطأ لا يغتفر ومعى علاج لهذا .

وأخرج الوجه من جيبه كتيبا ملونا قدمه قائلا : فى هذا الكتيب كل المعلومات عن منشآت الفندق وملاعبه ومطاعمه ، وحمام السباحة الكبير وحمام السباحة الساخن وكل الإحصاءات عن عدد الحجرات وعدد الاغطية والمقاعد والمناضد وعدد الملاعق والشوك والسكاكين والصحون وعدد الأدوات الكهربائية وطول أوراق التواليت وعدد المسامير التى استعملت فى البناء وطول السجاجيد وكل شئ . وإذا كانت تهمك تفاصيل أكثر فأنا على استعداد لتقديمها إليك .

قال (غ) : أقرأ هذا الكتاب بعناية .. وفتح الكتاب وشرع فى القراءة حتى قاطعه الوجه قائلا : آسف لانك سوف تقطع قراءتك إذ وصلنا . فنظر (غ) في ورقة جدول الأعمال وقرأ .

الزمان - التاسعة وخمسة عشر دقيقة

المكان - البناء الزجاجى

العمل - لقاء مع ج ب . رينولدز للمناقشة وزيادة البناء ..

قال (غ) : الساعة التاسعة واثنتا عشرة دقيقة وربع ثانية . ثم قال (وثلث ثانية ثم قال ونصف ثانية) .

قال الوجه نحن ياسيدى فى حاجة إلى رجل مثلك ليدير أعمالنا .

وهبطا من العربة وكان أمام (غ) بناء زجاجى مرتفع وقال (غ) : هذه نافذة . فقال الوجه : تعبير رائع مدهش اسمح لى ياسيدى أن أقترح استخدام هذا التعبير فى الدعاية عن البناء « النافذة » إنها مختصرة .. ثم إن لها وقعا فى الأذن ، وسوف يذكرها الرأى العام باستمرار .. حقا إن هذه الكلمة ثروة ضخمة .

قال (غ) : سوف ندخل النافذة . فقال الوجه : سيدى أنت أكثر

من رائع تصور هذه التعبيرات « ندخل النافذة » دخلنا النافذة .. خرجنا من النافذة .. مثير .. هذه معجزة . إن هذا يوم سعيد عند ج .ب

قال (غ) : أنا أعرف الحروف س ص ب . قال الوجه : هذه حروف عربية . قال (غ) : هذه حروفي . قال الوجه : يجب أن أدونها . وأخرج ورقة وقلما ودون الحروف ..

استقبلهما كرش وسيجار ودخان وشعر أبيض وعينان لحمهما أحمر وقال السيجار : (ج.ب) فقال (غ) سين صاد باء . وقال الوجه هذا باللغة العربية وقال السيجار في استطاعتنا أن نتفاهم فقال (غ) : جدول الأعمال يقول : للمناقشة . فقال السيجار في استطاعتنا أن نتفاهم فقال (غ) : جدول الأعمال يقول : للمناقشة . فقال السيجار أنا لا أفهم المناقشات الطويلة وكل شئ مدون بالتقارير .والاحصائيات معروفة ، المهم هو اتخاذ القرار . قال (غ) : المناقشة كلمة مكتوبة على الورقة . قال السيجار : ونكتب القرار أيضا فأمسك (غ) بقلم وشطب كلمة مناقشة وكتب كلمة قرار وقال هذا يصحح كل شئ . قال السيجار: ما هو قرارك . قال (غ) : كتبت الكلمة .

قال السيجار : أمامنا كلمات كثيرة نكتبها وعندنا في البيت الزجاجي مئات الآلات الكاتبة ومئات الآلات الحاسبة وعندنا عقول الكترونية تستطيع أن تعالج الحسابات الفلكية والكونية وعندنا أجهزة مقياس وموازين وعندنا أشعة كاشفة وآلات تصوير وآلات تسجيل وعندنا معامل مجهزة بكل الأدوات وكل المعدات . قال (غ) : لقد جمعت الكثير وأنا أحفظة جيدا وكما تلاحظ أن كلمة جيد في حد ذاتها تدل على أنى ذاكرت وحفظت ولكن ما أجمعه لا يكفى وما أحفظه لا ينتهى والآن قدم

لى مدير العلاقات العامة مستر بلنت كتابا من أربعمائة وسبعين صفحة هذا غير صفحات الغلاف وهى أربع . ومثل هذه الأشياء لا تنتهى وكلمة لا تنتهى فى حد ذاتها تدل على أن القرار يحتاج منا إلى دراسة أخرى. فقال السيجار : تأكد ياعزيزى أن كل الاجهزة التى ذكرتها لك ستقوم بالعمل وسوف تتخذ لنا القرار .

عندئذ قال غ : اتفقنا . فنهض الوجه وصافح (غ) السيجار وبدقة أكثر صافح اليد الممتدة من السيجار . وقال الوجه : سيدى مستر ج.ب إن عندى لك مفاجأة هل تعلم أن هذا البناء الزجاجى اسمه النافذة ؟ فقال السيجار ، من قال هذا ؟ فقال الوجه : إنه هذا السيد . وأشار إلى (غ) فجعل السيجار ينفث دخانا يحمل كلمات . النافذة . مشروعات النافذة . الالتحاق بالنافذة .. انضموا إلى النافذة . هذه هى النافذة . أنت فى حاجة إلى النافذة .. لا تغلقوا النافذة . انظروا من النافذة . لا تقفزوا من النافذة .

وكان السيجار يتمايل ويهتز من اليمين إلى الشمال وكان يطول ويقصر وكرشه يتقدم ويتأخر ثم يطول ويقصر ويطول ويقصر . وعندئذ قال (غ) : أنا أعرفك . قال السيجار : وهو يطول : طبعا أنت تعرفنى . قال (غ) : كانوا يتحدثون عنك فى قرية فى مصر وقالوا إنك الشيطان . فقال السيجار : نعم هو أنا . ثم قال : لماذا لا تضحك معى ؟ فقال (غ): نعم أضحك . وضحك (غ) وقال وهو يضحك : كما ترى أنا أعرف الضحك . فقال السيجار : مهم جدا أن تضحك . فقال (غ) : أنا أعلم دروسى جيدا ولقد قرأت كل الإعلانات على جدار المدينة وكل الإعلانات فى الصحف ولذلك أنا أعلم جدول أعمال الضحك والحزن والمشاعر

والانفعالات الاخرى . حتى تلك التى ليست فى الإعلانات فهى موجودة فى الكتب .

قال السيجار : غدا سوف ترى على جدران المدينة وسوف ترى فى الصحف هذه الكلمات . واضحك واحزن وانفعل واشعر مع النافذة .

وخرجوا من حجرة .ج . . وطافوا بمبانى النافذة وشاهدوا جميع الأجهزة والمعدات .

وفى المساء قرأ (غ) جدول الأعمال

الزمان - التاسعة مساء

المكان - شارع برودواى

العمل - حرية كاملة لسهرة المساء

وكان الوجه مستر بلنت قد ترك (غ) بعد أن ودعه فى منتصف ميدان وكان جمل مضئ ضخم يدخن سيجارة وكلمات مضاءة تتحرك فى الهواء . وقرأ (غ) : الثلوج ما زالت تهطل والمتوقع عاصفة عنيفة وكان الشئ الأبيض ما زال يقع من السيجار ويملأ الأرض وينتشر بعضه على معطف (غ) الذى قال لنفسه هذا اسمه ثلج .

وسار فى الشارع حتى وصل إلى مكان أنواره كثيرة داخله كثيرون يأكلون فوقف ينظر إلى أفواههم وأيديهم وكان قد شرع فى إحصائهم عندما رأى جسدا فى قميص وبنطلون ممددا على الرصيف .. وكانت الأقدام تتحرك حول الجسد ولكنها لا تتحرك فوقه . وكان للجسد شعر أصفر وعيناه زرقاوان تنظران إلى فوق و لا تتحركان.

ووقف (غ) ينظر إلى الحذاء فى قدم الجسد وقال : هذا النائم لا يخلع حذاءه .. ثم قال : هذا النائم لا يغلق عينيه .. ثم قال : يجب أن

أحفظ هذا جيدا .. وتقدم (غ) نحو الجسد وانحنى فوقه ثم خلع معطفه وخلع سترته ووضع المعطف فوق الرصيف بجوار الجسد ورقد (غ) علي المعطف ثم غطى جسده بالسترة وكان الشئ الأبيض يتساقط كثيرا وصفير فى الهواء والأقدام تتحرك وتختفى وقال (غ) مخاطبا الجسد الراقد بجواره : هيا بنا . فلم يتكلم الجسد فقال (غ) : أنت لا تتكلم . ولم يتكلم الجسد . فقال (غ) أنت لا تعرف النافذة ولا تعرف الوجه ولا تعرف ج.ب .. ولم يتكلم الجسد و كان الشئ الأبيض يغطى الجسد حتى كاد يغمره وكان يغطى (غ) الذى أمسك بورقة جدول الأعمال . وأعاد قراءتها منذ أول النهار حتى نهاية اليوم .. ولما وصل إلى الكلمات الأخيرة (حرية كاملة لسهرة المساء) طوى الورقة بعناية ووضعها فى جيب سترته وأخرج ورقة جديدة بها جدول أعمال الغد ولم يكمل قراءتها ، إذ كان الشئ الأبيض يتساقط وطارت الورقة ، فقام وراءها ، وكانت امرأة سوداء تسير وهى تتمايل يمينا وشمالا ، ولكنها لا تطول ولا تقصر وكانت تفتح ذراعيها أمام عربة تسير وكانت تنادى : قف انقذنى .. وسارت العربة ولوحت المرأة بيديها وسار (غ) وراء العربة ووراء الورقة حتى رأى بابا فدخله . فرأى مصعد الفندق .

قال صبى يضغط على أزرار المصعد : العاصفة أتلفت ملابسك ياسيدى .

قال (غ) : الورقة طارت فى الهواء . قال الصبى أوراق كثيرة طارت الليلة فى الهواء .

ولما خرج (غ) من المصعد قابله إنسان الصباح قال له : أعد لك شرابا ساخنا ياسيدى . فقال (غ) : سوف تقرأ الكلمات فى الصباح . وفى صباح اليوم التالى طرق الباب وفتح ودخلت القهوة ، واللبن

والبيض المقلى وعصير البرتقال وصينية وأكواب وصحون وإنسان الصباح الذى قال وهو يأخذ قطعة النقود من كف (غ) :

- صدقت ياسيدى .. كل شئ مكتوب فى الصحيفة ها هى ، ورأى (غ) الصحيفة وكلمة النافذة كبيرة تملأ الصفحة ثم كلمات أخرى تقول : لقد انتهت مشاكلك ، وقال إنسان الصباح : شكرا لك يا سيدى وخرج وكان (غ) يقرأ كلمات أخرى تقول : كارثة لم تشهدها نيويورك منذ ثمانين عاما .. ثلاثة آلاف عربة تحطمت فى الشوارع ودفنت تحت الثلوج ..أحد عشر ألف شخص قتلوا تحت الثلوج .

وكلمات أخرى قرأها (غ) وهو يأكل البيض المقلى ويشرب القهوة واللبن وعصير البرتقال .



الفصل الخامس عشر

ملحوظة من الناشر :

هذه هى الأوراق الختامية الباقية عن حياة (غ) وهى تبدأ بثلاثة أوراق بيضاء خالية تماما من الكلمات أو الرسوم فيما عدا السطر الأخير من كل ورقة فقد كتب فيه : (بقى القليل من الكلمات) ثم يلى ذلك ورقة مكتوب فى منتصفها (العودة إلى مصر)

ثم يقرر الكاتب أن (غ) قد عاد إلى مصر ونشرت بعض الصحف نبأ عودته فى سطرين وذكرت أنه سوف يعين بوظيفة كبيرة . وأن هذا الخبر قد تحقق رغم احتجاج الكثيرين واقتناعهم بأحقيتهم بالمنصب الذى حصل عليه (غ)

وقد طلب سيادة الوزير من (غ) أن يعد له تقريرا مفصلا عن رحلته إلى الخارج يوضح فيه ما اكتسبه من خبرة وتجارب ويقترح بعض التحسينات فى العمل .

وها هو التقرير الذى كتبه (غ) وسوف يذكر الكاتب لماذا لم يقدم (غ) هذا التقرير رغم الجهود التى بذلها فى كتابته .

سيدى الوزير :

كلفتنى سيادتكم بكتابة تقرير مفصل لتحسين الأحوال . وأنوه هنا بالاتفاق الذى تم بينى وبين ج. ب . رينولدز فى نيويورك وأرفق مع

هذا التقرير صفحات من جرائد قامت بدعاية ضخمة لمشروعات النافذة، والمفروض أن تزداد هذه الدعاية بعد أن يسير المشروع فى خطواته العملية . فمن الحكمة إذاعة أخبار المشروع وما يحققه من نتائج عن طريق تليفزيون فى قمر صناعى .. ومن الممكن إعداد ملصقات مرسومة وملونة تظهر فى أماكن متفرقة مثل أحراش الامازون .. ومزارع القصب فى كوبا وسفوح جبال الهيمالايا .. وهى أعلى جبال فى العالم ومن المهم جدا وضع إعلان بأضواء النيون فوق قمة هذه الجبال .. كذلك توضع الملصقات علي جذوع أشجار غابات الكونغو وعلى شاطئ الأوز فى المنطقة القطبية وفى سهول سيبريا وعلى جدران سور الصين وجوانب الهرم الأكبر

ولتسهيل سرعة إنجاز المشروع أستطيع – بعد إذنكم – مواصلة السفر لعقد اتفاقات مماثلة في موسكو ونيودلهى وبكين وبيونس ايريس ولاوس وغيرها . حتى تنشط الآلات في كل مكان ، الآلات الكاتبة والآلات الحاسبة والعقول الالكترونية التي تعالج الحسابات الفلكية والكونية . وكذلك تنشط أجهزة التسجيل وجميع المعامل المجهزة بكل الأدوات والمعدات ، والمفروض أنها سوف تعمل ليل نهار بلا انقطاع .

وقد وعد ج . ب رينولدز بأن تتضافر هذه الأجهزة والمعدات بكل العمل وأنها سوف تتخذ القرار . وهناك تصريحات أخرى وصلتنى وطلب أصحابها الاحتفاظ بسريتها . مثل تصريح الرفيق سميسلوف بأن العمل قد بدأ فعلا فى بلاده فى نفس المشروع وبتنظيم أحسن من تنظيمات النافذة . ومثل تصريح هنريكو جوانزاليس الذى أكد أن الأجهزة والمعدات هى وحدها القادرة على اتخاذ القرارات المناسبة فى

أمريكا الجنوبية . ومثل البرقية التى وصلتنى من شونبرج بأن الجهود يجب أن تتضافر لعمليات إحصاء اللانهائى وقد بحثت كلمة اللانهائى فوجدت انها تتفق تماما مع الغرض المطلوب وساعدنى فى هذا البحث كوشان شى الذى نصح بإضافة كلمات ضرورية لبرقية شونبرج لتصبح هكذا (الجهود يجب أن تتضافر لعمليات إحصاء اللانهائى التى تحتاج إلى مجهود لا نهائى)

سيدى الوزير :

أنا لم أعترض أبدا على أن نستمر فى عمليات الحفظ والمذاكرة ، وفي الحقيقة أنا لا أعرف معنى كلمة اعتراض ولكن يبدو أن الجميع يفهمون معناها كما أنى لا أوافق على أن نستمر فى عمليات الحفظ والمذاكرة وكلمة أوافق هى أيضا لا أعرفها ، ولكن يبدو أن الجميع يفهمون معناها .. أنا لا أعترض ولا أوافق . وكل ما فى الأمر ان ما نفعله الآن وما نتبادله من كلمات يقولون عنها مشاعر أو انفعالات أو معان كل هذه الأشياء تستطيع أن تقوم بها الآلات والمعدات وكما أعلم فهذا التقرير الذى أكتبه لسيادتكم كان من الممكن أن تكتبه الآلات الكاتبة والعقول الالكترونية . ،لكن لأمر ما يبدو أننى يجب أن أستمر فى الحفظ والمذاكرة ، والتسجيل والكلام ولأمر ما يبدو أننى يجب أن أستمر وفقا لجدول أعمال . وحسب الاتفاقات التى ستحرك الاجهزة فمن المنتظر أن ينظم جدول الأعمال بدقة مثالية . وأنا ياسيدى أنتظر أن يتم هذا التنظيم حتى أعرف عدد المرات التى آخذ فيها شهيقى أو ألفظ زفيرى فى الدقيقة وفى الساعة واليوم وفى العام . ومن المهم جدا – وكلمة مهم تفهمونها سيادتكم ، وأعترف أنى لا أفهمها – أن أعرف المكان والزمان

الذى تنتابنى فيه نوبات سعال أو عطاس . ومن المهم جدا ألا يفاجئنى طير فى السماء لم يحدد شكله ولونه وعدد ريشه وطريقته فى تحريك جناحيه وهو طائر فى الهواء . ومن المهم جدا أن أعرف بدقة عدد ذرات التراب التى يثيرها الهواء وأنا سائر فى الطريق فى لحظة معينة فى مكان معين . وبذلك أستطيع أن أحصر كميتها ، وأدرس وأحفظ مسارها ومكان تجمعها أو تبعثرها .

ومن المهم جدا أن أعرف بدقةمتى يقع فنجان القهوة فتنسكب منه القهوة كلها أو بعضها وإذا ما كان الفنجان سيتحطم نتيجة لوقوعه أم لا وما هو عدد القطع الذى سيصير إليها الفنجان إذا ما تحطم ، ثم هناك ملايين الاحتمالات الاخرى فالمفروض أن تحقق لنا الاجهزة وقراراتها أن نعرف كل حركة يد أو خطوة قدم أو رمشة عين وكل حركة شفة سواء كانت الشفة العليا أو السفلى وكل تغيير يحدث للوجه سواء كان بشرة ناعمة أم خشنة طرية أم جافة .

وأهم شئ سوف تحدده القرارات هو الاتفاق على برنامج للحفظ والمذاكرة حتى لا تحدث أخطاء نتيجة تعدد البرنامج ، فعندما سألت عن طول أوراق التواليت وقصرها كانت الإجابة عبارة عن تحركات فى الشفاه وعضلات الوجه وقفزات بالجسم وتلويحات باليد وأصوات متقطعة ونظرات لامعة . والأمريختلف فى نيويورك فعندما سألت هناك عن طول أوراق التواليت كانت الإجابة من كتيب ملون ورقم مدون فى أحدى الصفحات واعتذار لأن هذه المعلومات لم تصلنى حتى الآن .واختلاف الإجابات يا سيدى الوزير يشغلنى بمزيد من المذاكرة والحفظ ولكنى أستطيع الآن أن أقول

انتظروا القــرارات وأنا لا أعــــرف لماذا تحــفظون وتذاكــرون ولماذا تطالبونني بالحفظ ، والمذاكــرة فسواء طلبتم أو لم تطلبوا فالأمر واحد .

سيدى الوزير :

طلبتم منى مقترحات لتحسين العمل . وأنا أقترح اضافة كل شئ بعد أن تصدر القرارات وحتى الآن أستطيع أن أذكركم بكل شئ .

سيدى الوزير :

فى الختام أقول الآتى : السلام عليكم

.. بقى القليل من الكلمات .. هذا هو ما قاله (غ) وهو يرفع قدمه في السـحاب ويلعب بأصابعه فتتفرق السحب ويتحسس بكتفه السنابل والأفق وقرص الشمس ويفتح صدره فيتسع للحقول والترع والأبقار وشـوارع المدينة والمبـانى والناس . ثم هناك الحروف وهى طبعـا غـير الكلمات .

وقال (غ) :

عندما تصدر القرارات سوف تقرءون كل ما كتبته الآن من كلمات وبذلك لا يكون هناك داع لكتابة ما أكتب ولا داع للسؤال والجواب وسوف يخـتـار كل واحد مكانه . أنا تعـجبنى منطقـة بين السـحـاب - لونهـا بنفسـجى تحتها بحر كبير وفوقها سماء كبيرة واذا ما تمرغت هناك بين السـحب فسـوف أجـمـع الألوان في يدى وأبعـثـرهـا وسـوف أرى جـمـيع الأشكال وسوف أردد جميع الأصوات وأظل ألعب حتى يجئ الليل .

وأنا الذى أجئ بالليل أجذبه بيدى فيحضر .. وعندئذ أتمرغ بين السـحاب بين أحضان زكية ثم أدخل بطنها وأنام ..

ونهض (غ) ممسكا بالورقة التى كتبها وسار حتى دخل على زكية

حجرة نومها وكانت راقدة على ظهرها وبطنها منتفخ قليلا وقال (غ) : خذى واقرئى .. قالت زكية : لا أقرأ .. قال : اقرئى .. قالت : لا أقرأ . قال : أقرئى .. قالت أنا حامل .وأمسك (غ) بالورقة فمزقها قطعا صغيرة ونثرها من النافذة فتطايرت مع الهواء .. إحدى القطع تطايرت فوق غصن شجرة وإحداها سارت بعيدا مع الرياح وإحداها استقرت فى مياه بالوعة واحداها التقطتها حدأة .. واحداها تلقفتها يد صبى ، واحداها احترقت بنيران موقد .

ولا يجد الكاتب حرجا فى أن يقول .. إن (غ) ذهب إلى الوزارة .. فطلب منه مدير مكتبه التقرير . فقال (غ) : التقرير .. فقال المدير : نعم التقرير .. فقال (غ) : وما هو التقرير ؟ فأخرج المدير من جيبه أوراقا وقال : أنا كتبت التقرير .. فقال (غ) : كتبته .. فقال المدير : نعم كتبته على الآلة الكاتبة .. فقال (غ) : هذا هو التقرير ..

ولما قرأ سيادة الوزير التقرير المكتوب بالآلة الكاتبة ..

قال : هذا بديع .

ويقرر الكاتب أن تصرف المدير كان ينم عن الذكاء الذى وصفه أرسطو فى كتابه الأخلاق .. ذلك الذكاء الذى هو قدرة على التفهم السريع للموقف بصرف النظر عن عمق هذا الفهم أو جديته .. وبصرف النظر عما به من آراء قد تبدو لأول وهلة عميقة ولكنها سطحية تماما .

أما آراء (غ) فهى تختلف تماما ..

ملحوظة من الناشر : هذه هى الأوراق بكل غرابتها وغموضها ولست أدرى ما فائدة هذه الأوراق .. فهى لن تكسب قارئها مالا أو ذكاء أو طعاما أو مركزا ونفوذا .. ولكن عذرى فى نشرها رغم تفاهتها

الواضحة وخروجها عن كل مألوف ومعقول .. أنى أحببت (غ) .. أو ذلك الغبى الذى تتحدث الأوراق عنه بهذه الأهمية المبالغ فيها .

ولقد أشرت في بداية نشر هذه الأوراق إلى الفضول الشديد الذى انتابنى وأنا أفكر فى صاحبها . أعنى كاتبها .. وقلت إنى قد وصلت إلى رأى فى ذلك .

وهأنذا أعلن ما أعتقده .. وهو أن كاتب هذه الاوراق هو (غ) أو الغبى نفسه ..

والذى يؤلمنى حقا أن يكون هذا هو يقينى .. اذ معنى هذا أن (غ) قد استطاع أن يخرج من عالمه الخاص وأن يدون حياته بتسلسل يدل على أن بعض العقل وبعض الذكاء قد تسربا إليه وكان من الطبيعى أن أفرح لهذا ولكنى أتألم لأنى – وهذا غريب – ما زلت أفضل أن يكون (غ) ما زال يعيش فى عالمه ينعم بتلك الحرية الكاملة فى أن يتمرغ علي السحاب ويداعب السحاب بأصابع قدميه فهذا طموح إنسانى كبير وحرية عظيمة ترفع الإنسان إلى مرتبة لم يبلغها أبدا .. ولعله يبلغها بعد أن تفرغ الانسانية من مشاكل الجوع والفقر والسيطرة والقوة والغرائز التى تحكمها .. وتعجز الإنسانية عن التفوق عليها .

وحتى أتخلص من هذا الألم – الغريب – أتمنى أحيانا أن يكون كاتب هذه الأوراق شخصا غير (غ) وعندئذ أقول ربما كان الكاتب امرأة .. وربما كان زكية بالذات .. لأنى لا أخشى على زكية .. فهى مهما كتبت ومهما سجلت .. لها عالمها المعجز الذى يفوق بكثير القدرة على التمرغ فوق السحاب .. ومداعبته بأصابع القدم .. أعنى عالمها الذى تصنعه بالمعجزة ، عالمها الذى تصنعه وتحمله فى بطنها



هـــذه الـروايـــة

يقول الكاتب إن جميع المتصلين بمحمود يعهمون عن يقين أنه

غبى وان اختلفوا فى صفات أخرى له . فمثلا . هناك من يقول إنه غبى وطيب ، وهناك من يقول إنه غبى وقاسى القلب أو غبى ولكنه يعرف دقائق عمله . أو غبى له رأيه ، أو غبى وصريح ، أو غبى ولكنه حمار شغل أو غبى مخلص .

بدأت حياة محمود فى القاهرة ، ثم سافر فى رحلات إلى أوروبا وامريكا كما اتصل بالريف المصرى لكن الأجانب لايكتشفون غباءه . وكذلك الفلاحين . فهو غبى فى القاهرة وحدها .

هل هو غبى حقا ؟ أم هى مغامرة أدبية يكتشف . غانم جوانب فى النفس البشرية بعضها ينتمى إلى ع وبعضها ينتمى إلى عالم الربوت والحاسب الآلى . ويس غانم فى رحلته الاستكشافية كل ادوات الكتابة من وحرف . ويمزج بين الواقعية والخيال العلمى والتجريد وا رواية متميزة وفريدة فى عالم فتحى غانم الروائى .


Bibliotheca Alexandrina
0338564